

الفصل الثاني

فلسفته ومذهبه الاجتماعي

obeikandi.com

فلسفة التاريخ

ينظر سان سيمون إلى التاريخ الإنساني باعتباره وحدة متكاملة مستمرة ، فكافة الأحداث التي مرت بالإنسانية أو التي سوف تقع في المستقبل تكون وحدة واحدة مستمرة ترمز بدايتها للماضي وتعتبر نهايتها عن المستقبل . وهكذا يمكننا عن طريق الدراسة التبعية للتفكير الإنساني منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا ، كشف الخطوات الحقيقية التي يمكن أن يخطوها التفكير الإنساني في اتجاهه التقدمي العلمي نحو سعادة الانسانية (١) .

ويذهب سان سيمون إلى القول بأن وجود هذه السلسلة المتصلة من الأحداث التاريخية يجعل من الممكن وجود مكان ملحوظ لكل حدث مهما صغرت قيمته ومهما قلت أهميته في هذه السلسلة من الأحداث . ويرى سان سيمون أن كل تنظيم سياسي وكل نظام اجتماعي يجب لكي يكون نافعا حقاً أن يشيع حاجتين : أولهما : أن يكون مفيداً للمجتمع ، بمعنى أن يحقق للمجتمع فوائد إيجابية . ثانيهما : أن يكون متناسقا مع الأوضاع القائمة في المجتمع ، ومتفقا مع الأفكار والاتجاهات السائدة به .

ويؤكد سان سيمون أن هذا الشرط الثاني مع أنه غير مألوف كالشرط الأول إلا أنه ضروري للغاية ، لأنه عن طريق هذا الشرط وحده تصبح النظم مقبولة ، إذ أنه لا يمكن أن يقوم أي تنظيم سياسي أو اجتماعي دون أن يكون متناسقا مع أوضاع المجتمع ، كما أنه لا يمكن أن تكون هذه النظم دائمة البقاء بالرغم من تغير الأفكار والاتجاهات في المجتمع . ولا يمكن أيضا أن تكون هذه النظم الاجتماعية

Mémoire sur la Science de l'homme (1813) Oeuvres choisies, t. 11, p. 13. (١)

والسياسية في مستوى أرقى أو أدنى من مستوى الأوضاع القائمة بالمجتمع^(١) .
 فالنظم الاجتماعية والسياسية في أى مجتمع تعطينا في الحقيقة صورة فعلية
 للأوضاع القائمة في هذا المجتمع في فترة زمنية معينة ، وتلقى الضوء على الاتجاه
 الفكرى والتيارات الاجتماعية والأخلاقية في الفترة التى قامت فيها هذه النظم واستقرت .
 هذه هي القيمة الحقيقية والفائدة الأساسية للدراسات التاريخية في نظر سان
 سيمون لأنه « لا يمكن الوصول إلى معرفة مؤكدة عن العناصر الحقيقية للوضع
 الحاضر إلا عن طريق الملاحظة الفلسفية للأحداث الماضية^(٢) » .
 وفي بحثه عن « إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى » (١٨١٤) يؤكد أن الإنسانية
 تسير دائما نحو التقدم المطرد والسعادة الحقيقية وأن « العصر الذهبى للإنسانية
 لم يكن أبداً وراء ظهورنا ، وإنما هو مائل أمامنا ، مائل في تحسين الوضع الاجتماعى
 فأبائنا لم ينعموا به قط ، ولكن أطفالنا سوف يسعدون به يوما ما . ويقع على
 عاتقنا نحن أن نمهّد لهم الطريق إليه^(٣) » .

ويحاول سان سيمون في هذا المؤلف أن يستعرض التطور التاريخى للإنسانية ،
 فيحمل الأحداث التاريخية والوقائع الحربية وتاريخ الملوك ، وينصح بأن نبحث
 فقط عن الصفات الأساسية للمعرفة ولروح التفكير في كل قرن ، وأن نتعرف
 البواعث الحقيقية للثورات والنتائج الاجتماعية المترتبة عليها ، فهذه الأمور وحدها هي
 التى تفسر التاريخ وهى التى تضىء على كل قرن صفاته المميزة . فالقرن السادس
 عشر مثلا كان يتميز برجال اللاهوت أو على الأقل كان هذا هو اتجاه التفكير
 في ذلك القرن ، فكان أغلب الحكام ينصب اهتمامهم على المشاكل المتصلة
 بالعقائد الدينية . وفي القرن السابع عشر ازدهرت الفنون الجميلة وبدأت تظهر

(١) الصناعة ، المجلد الرابع (١٨١٨) في مؤلفات سان سيمون وأتفانتان . الجزء ١٩ ص ١٣٩ و ١٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، الجزء ١٩ ص ١٤ .

(٣) في إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى (١٨١٤) - في المؤلفات الكاملة لسان سيمون
 وأتفانتان ص ٢٤٧ و ٢٤٨ .

روائع الأدب الحديث . وكتاب القرن الثامن عشر كانوا فلاسفة حاولوا أن يبينوا أن النظم الاجتماعية الهامة كانت قائمة على أحكام غير سليمة وعلى الخرافات ، وأرادوا أن يخلصوها من هذه الخرافات والقوى التي تنشأ عنها . ويرى سان سيمون ضرورة اهتمام كتاب القرن التاسع عشر بالمسائل السياسية ، فكل شيء ينطق بأن الاهتمام بمعالجة المسائل السياسية هو محور أهداف هذا العصر . ففلسفة القرن الثامن عشر كانت فلسفة ثورية في حين أن فلسفة القرن التاسع عشر يجب أن ترمى إلى التنظيم^(١) .

فكأن فلسفة التاريخ عند سان سيمون تقوم على البحث عن الدوافع والأسباب التي تميز أحداث التاريخ وتلونها بلون خاص . فمن دراسة الأسباب والدوافع لا يصبح التاريخ مجرد تسجيل للوقائع الحربية وحياة الولاة والحكام والملوك ، بل يصبح التاريخ سجلا للتطور الاجتماعي وصورة لا يكتنفها الشك لتفكير الشعوب وعاداتها وتقاليدها . ويمكن عن طريق المقارنة العلمية تحديد العوامل والظروف التي إذا اجتمعت يمكن أن تؤدي إلى أحداث من لون خاص .

وفي بحثه عن « الجاذبية العامة » (١٨١٣) وفي الجزء الثاني من « المنظم » (١٨٢٠) يذهب سان سيمون إلى القول بأن التاريخ الحقيقي للإنسانية هو تاريخ العلوم^(٢) لا تاريخ الملوك والأمراء أو تاريخ الوقائع والحروب . فالتاريخ الذي يكتفى بتسجيل حياة الملوك والأمراء وتسجيل الوقائع الحربية والفتوحات العسكرية لا يعنى شيئاً بالنسبة للتقدم الإنساني ولكننا مع الأسف لا نرى ولا نقرأ سوى تاريخ واحد هو تاريخ الملوك والحكام ، « ولم يتخذ أى مؤرخ لآن وجهة نظر عامة ، ولم يتم أحد لآن بإعداد تاريخ الجنس البشري ، وأخيراً لم يقل أحد للملوك هذا هو ما سوف ينتج مما قد حدث ، ها هو نظام الأشياء التي سوف تقودكم إليها الأضواء ، ها هو الهدف الذي يجب أن توجهوا نحوه ممارسة السلطة الواسعة التي

(١) نفس المرجع السابق ، الجزء ١٥ ، ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) بحث عن الجاذبية العامة (١٨١٣) في مؤلفات مختارة الجزء الثاني ص ٢٣ .

بين يديكم^(١) ». فالتاريخ بصورته الراهنة - في نظر سان سيمون - لا يعد دليلاً كافياً للملوك ولا للأتباع ، فهو لا يمكن فريقاً منهما من استنباط ما سيحدث في المستقبل مما حدث فعلاً ، في حين أن الصفة التفسيرية للتاريخ - التي تعد حجر الزاوية في التاريخ العلمي - هامة جداً ، إذ أنها تتيح إدراك التاريخ الحاضر وفهمه ووضع الأسس التي تتبع في المستقبل .

ويعيب سان سيمون على المؤرخين أنهم - حتى يومنا هذا - لم يوجهوا اهتمامنا نحو سير الحضارة . ولهذا فإنه يلتبس علينا الأمر إذا ما فحصنا أحداث الماضي في ضوء ما يواجها من علاقات ، مع أن كافة التغيرات الكبرى التي وقعت في التاريخ كانت نتيجة لإعداد طويل قبل أن تبدأ في الظهور . وكانت النتيجة الفعلية لذلك أننا نجهل اليوم حقيقة التقدم المتتابع للفكر الإنساني^(٢) .

ويبدى سان سيمون أسفه لأن التاريخ ظل حتى أواسط القرن الثامن عشر مجرد ترجمة لحياة رجال السلطة ، ولم تكن الشعوب تظهر في هذا التسجيل إلا كأدوات أو كضحايا لاستكمال الصورة المطلوبة ، ولم يكن هذا التاريخ يتضمن إلا بعض النبد القصصية المبعثرة عن حضارة الشعوب . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر « كانت الملاحظات متجهة بصفة عامة نحو تفكير أفضل ، ولكنها على الرغم من ذلك ظلت تتسق بنفس الطريقة ، كحال قلعة قديمة يعاد توزيعها الداخلى على صورة حديثة ، بينما أن التصميم والمظهر الخارجى يظلان على طرازهما القوطى » . فسان سيمون يقول إن الإصلاح اتجه إلى المادة نفسها إلى يصاغ منها التاريخ ولم يتجه إلى الطريقة التي تتبع في صياغة التاريخ ، فالأحداث التاريخية لا تربطها أية نظرية علمية^(٣) .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن التاريخ لا يعدو أن يكون مجموع

(١) نفس المرجع السابق . الجزء الثاني ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) المنظم . في مؤلفات سان سيمون وألفانثان الجزء ٢٠ ص ٦٩ .

(٣) المرجع السابق . الجزء ٢٠ ص ٦٩ - ٧٣ .

المعارف العلمية ، فإذا كان « قد أسىء إعداده فلا شك أن الشعوب والملوك يكونون قد ارتكبوا كثيرا من الأخطاء ، ولن ينفكوا عن ارتكابها طالما أن التاريخ سوف يظل سىء الإعداد^(١) : فالتاريخ إذا لم يعتمد على الملاحظة العلمية لتطور الحضارة والعلوم ، فإنه سيظل متخلفا عن باقي العلوم ويصبح من المحال النهوض بالشعوب وتبصيرها بأفاق جديدة من المعرفة .

ويلاحظ أن سان سيمون يهتم بالصفة التفسيرية للتاريخ ، وهو بهذا يعتبر المهدد لفلسفة التاريخ عند كارل ماركس . فأحداث التاريخ في نظر سان سيمون ليست إلا تفسيرا لأحوال المجتمع ونظمه ومستوى التفكير فيه ، وإن كان ماركس يرى أن النظم الأخلاقية والسياسية والحالة الحضارية ليست إلا نتيجة للحالة الاقتصادية ، فإن سان سيمون لا يرجع أحداث التاريخ إلى الحالة الاقتصادية وحدها ولكنه لا يغفل أهمية الجانب الاقتصادي وعلى الأخص فيما يتعلق بالملكية الفردية . وهو لا يجعل الأحداث التاريخية تشتق وجودها وكيانها نتيجة لسبب واحد مهما كانت أهمية هذا السبب ، وإنما يقول بتعدد الأسباب المفسرة للتاريخ فهذه العوامل مجتمعة هي التي تفسر التاريخ ، لأن تقابل كل عامل مع العوامل الأخرى وتدافعها تارة وتصارعها تارة أخرى هو الذى يؤدي في النهاية إلى قيام الظواهر الاجتماعية . والتاريخ لا يفسر بظاهرة واحدة من الظواهر الاجتماعية مهما بلغت قوتها أو أهميتها وإنما بمجموع الظواهر الاجتماعية مجتمعة .

ويذهب سان سيمون في مؤلفه عن « إعادة تنظيم المجتمع الأوربي » (١٨١٤) إلى القول بأن التطور التاريخي للملكية يؤكّد أن نظم الملكية تسير دائما وفقا للمستوى العقلي والعلمي في كل عصر . فالملكية تعبر في كل مرحلة من مراحل التاريخ عن معاني مختلفة . ففي العصر الإقطاعي الحربي مثلا كانت الملكية تنتقل عن طريق الميراث لأنها قامت على الحروب والسلب والاعتصاب أما اليوم فإن الملكية يجب أن يحصل عليها الفرد نتيجة لمميزاته الشخصية لا نتيجة

لمولده أو لعنصره لأن توارث الثروات ينتهى بالسيطرة والتحكم فى ملكية وسائل الإنتاج التى تؤدى إلى استغلال الطبقة العاملة ، وهذا ما لا يتفق مع طبيعة العصر ولا مع الدور الفعال الذى تؤديه الطبقة العاملة فى السير بالمجتمع فى طريق التقدم . ولهذا يرى سان سيمون « أنه لا يمكن وجود أى تغير فى النظام الاجتماعى دون أن يحدث تغير فى نظام الملكية »^(١) . فقانون التقدم الذى تتجه نحوه الإنسانية يميل إلى إقرار نوع من النظام الذى ترث فيه الدولة - لا الأسرة - من الثروة ما يطلق عليه رجال الاقتصاد « جوهر الإنتاج » وهو لا يحدث نتيجة لشيوع فى الثروة ، ولا نتيجة لتحديد فى المقدرة على التملك ، ولكن نتيجة لحق جديد هو حق كل فرد تبعاً لمقدرته ولكل مقدرة تبعاً لما تحققة من أعمال .

والانتقال إلى النظام الجديد للملكية لا يمكن أن يحدث فجأة وعن طريق القوة ، ولكن ببطء وبشكل تدريجى لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالعمل المستمر والحماس وتقدير أهمية هذا التحول . والقوة الجديدة التى يمكن الالتجاء إليها للانتقال إلى النظام الجديد للملكية هى « القوة الإنتاجية » .

فالملكية التى يحصل عليها الفرد نتيجة لمميزاته الشخصية تؤدى إلى تلاشى العادات والميول غير الاجتماعية التى تصبح موضعاً للامتعاض والكراهية ويحل محلها الشعور بقيمة العمل وقديسيته ، ويصبح التفانى والعبقرية هما المقياس الأساسى للملكية . فتحويل نظام الملكية بحيث يساير المقتضيات الأخلاقية والاجتماعية ، هو حجر الزاوية فى فلسفة التاريخ عند سان سيمون . فهو يعتبر أن الأرض أداة للعمل وأن الدولة هى المالك الوحيد لها ، وهى التى تقوم بتوزيع الدخل على الأفراد كل بحسب مقدرته حتى يتم توزيع الإنتاج على كل فرد بحسب عمله . والملكية الفردية - فى نظر سان سيمون - ليست لإعادة سيئة ، وأنه لا يمكن أن تستمر مثل هذه العادة السيئة فى وقت تقدمت فيه العلوم والأخلاق الإنسانية .

(١) فى إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى (١٨١٤) فى مؤلفات سان سيمون وألفانتان :

وأنه لا يمكن على الإطلاق أن يتم أى تغير فى النظام الاجتماعى دون أن يمهد إلى ذلك تغير فى نظام الملكية وهنا تحدث الثورات . ويشرح سان سيمون الدور الذى يمر به هذا التغير فيقول :

إن « الحماس فى سبيل الصالح العام يمكن أن يساعد على قبول التضحيات التى يستلزمها هذا التغيير ، وهذه هى أول مرحلة فى كافة الثورات ، ولكن سرعان ما يظهر الندم ورفض التضحية ، وهذه هى المرحلة الثانية . وعندئذ لا يمكن التغلب على مقاومة الملاك إذا لم يتسلح غير الملاك ، ومن هنا تقوم الحروب الأهلية وأحكام النفي الظالمة والمذابح^(١) » .

وعلى هذا فإن سان سيمون يرى أن الصراع من مستلزمات التقدم ، وهو فى هذا يبدو متأثراً بفلسفة التاريخ عند ترجو . فهذا الصراع هو الذى يدفع الإنسانية إلى الأمام ويساعدها على التقدم . ولكن الصراع فى نظر سان سيمون لا يعنى استخدام القوة أو العنف وإنما يعنى التسلح بالمعرفة والعلوم ، فهو يقول : إننا إذا استرجعنا أحداث التاريخ نجد أن طبقة الصناع كانت مستعبدة استعبادا تاما من طبقة المحاربين فى العصرين اليونانى والرومانى . ثم بدأت طبقة الصناع تنحدر شيئا فشيئا كلما توغل الغزاة فى الريف ولم يصبح الصناع المستقرون فى المدن تحت السلطان المباشر والمستمر لهؤلاء الأسياد . ثم أصبحت الطبقة الصانعة اليوم فى حالة تمكنها من تولى السلطة العامة ، ولكنها لا تزال محرومة من حقوقها .

يرجع سان سيمون ذلك إلى أن طبقة الصناع كان يجب أن تصارع وتستمر فى صراعها مع الطبقات الأخرى الإقطاعية أو العسكرية التى وضعت يدها على الحكم ، لكى تحصل على حقوقها كاملة .

ويؤكد سان سيمون أننا إذا نظرنا إلى التطور التاريخى للإنسانية فإننا سوف نجد أن الصراع هو الذى يمهد الطريق إلى التقدم . فنجد القرن الرابع عشر وقع

(١) نفس المرجع السابق : ص ٢٤٢ .

صراع مكشوف بين النظام الصناعي والنظام الإقطاعي ، كما وقع صراع بين رجال الدين من جانب والعلماء ورجال الفكر من جانب آخر . وقد تزايد هذا الصراع في القرن السادس عشر في داخل الكنيسة الكاثوليكية مما ساعد على قيام الإصلاح البروتستانتي . كما تزايد الصراع بين طبقة العسكريين وطبقة الصناع مما ساعد على ظهور طبقة جديدة هي طبقة المشرعين والميتافيزيقيين .

ويتبين تفكير سان سيمون العلمي الاجتماعي من نظريته إلى الصراع والثورات . فالصراع في نظر سان سيمون يجب أن يبدأ بصورة سلمية ، فإذا لم يفلح الصراع السلمى فلا مناص من قيام الثورات . والثورة في نظره - كما هو الحال عند ترجو - لا تعنى الفوضى وإنما هدف إلى إيقاف الظلم والاستبداد ، وإزالة عوامل التخلف والسير بالإنسانية في طريق الارتقاء والتقدم . فالثورة في الحقيقة لا يمكن أن تفتعل ، ولا يمكن أن تكون شيئاً دخيلاً على المجتمعات الإنسانية ، وإنما هي حالة تنبع عن حاجات المجتمع وظروفه . ومهما كانت نتائج هذه الثورات فإنها تسير بالإنسانية نحو التقدم .

وبالرغم من أن سان سيمون يمهّد في كثير من أفكاره لمبادئ ونظريات كارل ماركس ، إلا أن سان سيمون يرى أن التحول الذي تقتضيه النظم الاجتماعية يمكن أن يتم في سلام وهدوء لو تغيرت نظم الملكية بما تقتضيه الأحوال الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية في المجتمع .

وبالرغم من ذلك ، فإن هذا النظام الجديد للملكية لا يؤدي إلى زوال الطبقة ، وإنما يتيح نوعاً من الطبقة الصناعية ، لأن التنظيم الجديد يستلزم وجود رجال قادرين على تمييز العناصر الضرورية للإنتاج من العناصر غير المنتجة ، هؤلاء الرجال يكونون ما يسمى «بالقيادة الصناعية» وهؤلاء يجب تعيينهم بواسطة الدولة المالكة لوسائل الإنتاج .

فآراء سان سيمون عن التحول الاجتماعي ، وخاصة التحول في نظام الملكية تتفق تماماً مع وجهة النظر التي ينادى بها علم الاجتماع ، فهو يرى أنه لا بد من

وجود تغير جوهرى فى نظم الملكية ، وأن هذا التغير لا يمكن أن يحدث فجأة وعن طريق القوة ، ولكن ببطء وبشكل تدريجى عن طريق العمل والحماس والإيمان بأهمية هذا التغير . وعلم الاجتماع يقر التحول الاجتماعى فى هدوء دون الالتجاء إلى العنف والثورات . وهذا التحول الهادئ يستلزم فحص المشكلة وتعرف جوانب الشذوذ فيها ومحاولة تشخيص الداء ثم الاتجاه فى إصلاحه وجهة سلمية ، وهذا هو ما اتجه إليه سان سيمون عندما أوضح أن القوة الوحيدة التى يمكن الالتجاء إليها للانتقال إلى النظام الحديدى للملكية - النظام الذى يقوم على إلغاء توارث الثروات واعتبار الدولة الوارث الوحيد لها - هذه القوة الوحيدة ليست قوة عسكرية أو قوة مسلحة وإنما هى « القوة الإنتاجية » . فعن طريق العمل المستمر والإنتاج المتواصل تتمكن الطبقة الصانعة من أن تؤكد وجودها وتثبت أهميتها وتبرز مكانتها ، وعندئذ تصبح الملكية أمراً يعتمد على مميزات الفرد الشخصية دون اعتبار لحسبه ونسبه ، وبهذا تهبأ العقول والأفكار لتقبل الاتجاه الحديدى نحو توريث الدولة لما يعرف بجوهر الإنتاج ، والسماح للفرد بالتملك ملكية شخصية تزول بمجرد وفاته مباشرة .

ويذهب سان سيمون فى مؤلفه الذى يحمل عنوان « تعاليم رجال الصناعة » (١٨٢٣) إلى القول بأن الأوضاع الطبقيّة فى أى مجتمع لا بد أن تسير التقدم الذى تتجه إليه الإنسانية فى سيرها عبر التاريخ . فالتنظيم الطبقيّ يجب أن يتفق مع فائدة كل طبقة والخدمات التى تقدمها للجنس البشرى وللتقدم الإنسانى . « فحتى اكتشاف البارود ، كان على طبقة النبلاء القدامى أن تمارس سلطات سياسية واسعة ، لأنها كانت تؤدى خدمات جلييلة للمجتمع ؛ فكان من الضرورى أن تكون على رأس الأمة ، لأنها كانت الطبقة التى تحافظ على الكيان القومى . فطبقة النبلاء كانت إذن أكثر الطبقات جهداً فى العمل فى فرنسا »^(١) . أما اليوم وقد ساعد اكتشاف البارود على أن يجعل كل مواطن فى

(١) فى النظام الصناعى (القسم الثانى) (١٨٢١) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء

وضع يمكنه من أن يحمل السلاح ويزود عن أرض الوطن ، فلم يعد هناك أى حق للنبلاء لكى يظلوا على رأس الأمة ، ويجب بالضرورة أن يشغل من هم أقدر وأكثر منهم فائدة للمجتمع مكان الصدارة فيه .

ويسخر سان سيمون من سوء التنظيم الطبقي في فرنسا فيقول في مقال مشهور له باسم « قصة سان سيمون الرمزية » La parabole de Saint-Simon فلنتخيل أن فرنسا تفقد فجأة الخمسين الأول من علماء الطبيعة بها ، والخمسين الأول من علماء الكيمياء ، والخمسين الأول من علماء الفيزيولوجيا ، والخمسين الأول من رجال المال ، والمائتين الأوائل من تجارها ، والسماة الأول من رجال الزراعة بها . والخمسين الأول من رجال الصلب والحديد بها . . . إلخ ، فإن المجتمع سوف يغدو جسدا بلا روح في اللحظة التي يفقد فيها هؤلاء الرجال ، وسوف يشعر بالانقص أمام المجتمعات التي يقف منها اليوم موقف الند .

ولنقل أن فرنسا تحتفظ بالعابرة من رجالها في ميادين العلم والفن والصناعة ، ولكنها تصاب بكارثة فتفقد في نفس اليوم السيد شقيق الملك ، والسيد دوق أنجوم . وأنها تفقد في نفس الوقت كافة ضباط الحرس العظام ، وجميع وزراء الدولة ومستشاريها ، وكافة الكرادلة والرؤساء الدينيين ، وجميع المديرين ومساعديهم وبالإضافة إلى كل ذلك أغنى عشرة آلاف مالك من بين الذين يعيشون عيشة النبلاء .

هذا الحادث لا شك أنه يهز مشاعر الفرنسيين ، ولكن هذه الخسارة لثلاثين ألفا من المواطنين ذوى الشهرة والمكانة في الدولة لا تسبب سوى آلاما عاطفية لأنها لن تسبب أى أضرار سياسية للدولة^(١) .

ولذا يرى سان سيمون أن يعطى لكل طبقة من المكانة ما يتفق مع فائدتها الحقيقية للمجتمع دون اعتبار للحسب أو للنسب أو للمركز الاجتماعي ، وأن تهيأ الأسباب التي تساعد على رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة والتخلي عن

(١) المظم ، في مؤلفات سان سيمون وأزمانتان . الجزء ٢٠ ص ١٧ - ٢٦ .

الأساليب المنافية للإنسانية في استغلالها لصالح أصحاب رؤوس الأموال . وعلى الحكومات أن ينصرف اهتمامها إلى تحسين حال هذه الطبقة التي لا تلقى أى عناية ، وأن ينظر إليها كعنصر أساسى فى تقدم الإنسانية . لأن الجنس البشرى لن يسير سيرا حثيثا فى طريق التقدم ما دام أنه منقسم إلى معسكرين غير متعادلين هما معسكر أصحاب الأعمال من جانب ومعسكر أصحاب الأيدى العاملة من جانب آخر . ذلك أن المعسكر الأصغر عددا يستخدم دائما كل قوته فى السيطرة على المعسكر الأكبر عددا .

يبدو سان سيمون فى تفكيره عن الطبقات الاجتماعية – متأثرا بأفكار فولتير التى تقول بأن نظام الطبقات ضرورة اجتماعية – فالطبقات من مستلزمات الحياة فى المجتمع الإنسانى وأنه لا يمكن قيام مجتمع تنعدم فيه الطبقات أو وجود مجتمع تسود فيه طبقة واحدة ، وأن هذا النظام الطبقي يجب أن يقوم على العدالة الاجتماعية بحيث لا تطفئ طبقة على أخرى . ويقول سان سيمون أن « نقص الحيوية والنشاط لدى الصناعيين من أجل مصالحهم الاجتماعية ، وعدم ثقتهم فى قوتهم وكفاءتهم السياسية ، كل هذا يرجع إلى عادات التبعية التى اكتسبوها تحت ظل السيطرة الطويلة للنبل والعسكريين » (١) . ولكنه يبدو متفائلا فيؤكد أن هذه السيطرة قد تحطمت أو كادت أن تتحطم كلية ، ولهذا فإنه مما لا شك فيه أن تختفى عادات التبعية شيئا فشيئا بصورة تلقائية .

ويأمل سان سيمون أن تنشق الطبقة الصانعة فى قوتها وشجاعتها وأن ينمو فيها الطموح والإحساس بالتضامن الطبقي . والطبقة الصانعة فى نظر سان سيمون يجب أن تكون على رأس الأمة « لأن مصالحها الخاصة تتفق تماما مع المصلحة العامة . بقوة الأمور وحدها » (٢) .

فمن رأى سان سيمون أن وجود النظام الطبقي تأكيداً لطبيعة الحياة الاجتماعية

(١) الرجل السياسى (١٨١٩) الملمزة الثامنة ص ٢٧٩ .

(٢) الصناعة ، المجلد الرابع (١٨١٨) فى مؤلفات سان سيمون وأنفانتان الجزء ١٩ ص ١٦٩

ولهذا فهو لا يهاجم هذا النظام في ذاته ، وإنما يهاجم سوء التنظيم نفسه ويدعو إلى إعادة التوزيع الطبقي بحيث تجد كل طبقة المكان الذى يتفق مع فائدتها للمجتمع والذى يتفق مع مدى ما تقدمه من خدمات للمجموع . وأن هذا التنظيم يتحقق عن طريق تهيئة أسباب الحياة السوية أمام الطبقة العاملة وعدم استغلالها لصالح أصحاب رؤوس الأموال .

وهنا تبين لنا نقطة هامة في فلسفة التاريخ عند سان سيمون وهي محاولته تأكيد أهمية العنصر الإنسانى وعدم ذوبانه أمام التنظيم الآلى الذى ظهر بصورة جارفة في مستهل القرن التاسع عشر ، فهو يهدف من فكرته عن التنظيم الطبقي إلى تحرير الإنسان من رق أخيه الإنسان من جانب ، وإلى تخليصه من رق العادات والتقاليد التى تعطى لكل شخص مكانا طبقياً يتناسب مع حسبه ونسبه دون أن تعطى أى عناية لعمله أو لإنتاجه أو لكفايته العقلية من جانب آخر . وعلى هذا فإن فلسفة سان سيمون التاريخية تسير في الاتجاه الذى سار عليه رجال الموسوعة العلمية وهو تأكيد أهمية الإنسان والاعتزاز بقدراته العقلية والذهنية ، وبأن المعرفة والتثقيف هما الوسيلة الفعالة للنهوض بالإنسان وتمكينه من نفسه وتهيئة السبيل أمامه للسير في طريق التقدم .

العلم والمجتمع

قلنا إن سان سيمون يرى أن التاريخ الحقيقي للإنسانية هو تاريخ العلوم ، وأن الوصول إلى إقامة علم للإنسان يستلزم الوقوف على سير العلوم وتطورها . ولهذا فهو يدعونا أن نعود بذاكرتنا إلى نوع التعليم الذي تلقيناه في طفولتنا : « لقد كان انتباهنا موجها نحو تاريخ اليونان والرومان ، وكانت الأفكار الجمهورية تراود مشاعرنا دون أن تتمكن من التعبير عنها ، وبالرغم من ذلك فقد ساعدنا هذا التعليم على أن نصبح ثوريين ، ولكن بالرغم من أننا وصلنا إلى هذه الحال فإن الطريقة التي تلقينا بها تعليمنا لا تتفق والمستوى الذي أقامته الثورة ، ولهذا وجب أن تصبح مبادئنا التعليمية في مستوى مبادئ الثورة نفسها^(١) . »

ولكى يتيسر تزويد أطفال الجيل بمبادئ التربية الحديثة ، فإنه من اللازم لنا أن نصر من جديد مجموع معرفتنا العلمية والأدبية ، بمعنى إعادة تنظيمها في موسوعة علمية جديدة . ويعتقد سان سيمون أن انتشار العلم والمعرفة من أهم الوسائل لتقريب القلوب وتوحيد الإنسانية ، وأن الموسوعة الجديدة هي الوسيلة الفعالة للقضاء على الحروب وعلى فتك الإنسان بأخيه الإنسان . ففي بحثه عن « علم الإنسان » يوضح سان سيمون أن الحرب العادلة التي تقوم بها فرنسا الثائرة ضد أوروبا الإقطاعية قد تحولت إلى حرب غير عادلة ، حرب تقوم على السلب والنهب والاعتصاب . ولهذا يجب أن يتركز اهتمام الإنسان على العلوم لا على الحروب ، وأن ينشأ علم للإنسان المثالي في كافة مظاهر نشاطه .

ويسعى سان سيمون جاهدا للمساهمة في تقدم العلوم ونموها ، ولهذا فهو يجيب في « رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه » على سؤالين كثيرا ما كانا

(١) تاريخ الإنسان (تبيته) (١٨١٠) ص : ٢٤٠ .

يترددان على ألسنة الرأي العام : من هو العالم ؟ وما هي الأسباب التي تجعل من العلماء قادة الإنسانية ؟ .

أما عن السؤال الأول فيقول إن العالم هو الرجل الذي يتنبأ بالأهـور . لأن العلم يقدم له الوسيلة المفيدة لهذا التنبؤ . فعن طريق التنبؤ بسير الكواكب أمكن الوصول بطريقة مؤكدة إلى تحديد المواقع المختلفة من الأرض . كما أن التنبؤ بمواقع النجوم هو الذي يحدد سير الملاحة في أكثر البحار اتساعا .

هذا التنبؤ العلمي – في نظر سان سيمون – هو الذي يجعل العلماء يتخذون بالضرورة مكان القيادة في المجتمع . ولكنه يستدرك فيقول : « لا تعتقدوا إنني أريد أن أدخل في روعكم أن العلماء يمكنهم أن يتنبأوا بكل شيء . لا ، بالتأكيد ، فهم لا يستطيعون أن يتنبأوا بكل شيء . بل إنني واثق أنهم لا يستطيعون أن يتنبأوا بصورة مؤكدة إلا بعدد محدود من الأشياء . ولكنكم مقتنعون مثل أن العلماء كل في جانبه ، هم الأشخاص الذين يمكنهم أن يتنبأوا عن كثير من الأشياء ، وهذا شيء مؤكد . ما دام أنهم لا يحصلون على سمعهم كعلماء إلا عن طريق البراهين التي تظهر من تنبؤاتهم . وهذا هو على الأقل ما يحدث اليوم ، ولم يكن الحال كذلك دائما »^(١) . ويعني سان سيمون بذلك أن العلماء لم يكونوا أكثر قدرة على التنبؤ فيما مضى حينما كان العلم خاضعا للسحر واللاهوت .

ويؤكد سان سيمون أن أي عمل علمي مثمر لا يتأكد إلا إذا كان منظما تنظيما جمعياً . ولهذا فهو يرى ضرورة إبعاد العلماء عن سيطرة الدولة وسيطرة الملاك بضمان وسائل الحياة الكريمة لهم . ويقترح سان سيمون أن تمول المشروعات العلمية وتدفع مكافآت العلماء من التبرعات الشعبية العامة فهو يقول : « افتحوا كتابا أمام مقبرة نيوتن ، واكتبوا في سرية تامة بالمبلغ الذي ترغبون فيه »^(٢) .

(١) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) في مؤلفات سان سيمون وألفانتان

الجزء ١٥ ص : ٣٨ - ٤٠ .

(٢) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) في مؤلفات سان سيمون وألفانتان

الجزء ١٥ ص : ١١ .

ويذهب سان سيمون إلى حد أنه يترك للمواطنين الحرية في اختيار ثلاثة من علماء الرياضة ، وثلاثة من علماء الطبيعة ، وثلاثة من علماء الفيزيولوجيا ، وثلاثة من رجال الأدب ، وثلاثة من الرسامين ، وثلاثة من الموسيقيين كل عام . وعلى كل مكتب أن يجدد اكتبه سنوياً ويجدد الأشخاص الذين يختارهم ، أو يجدد ثقته فيمن سبق له اختيارهم . « وبهذا الأسلوب يمكننا أن تسلموا القيادة إلى هؤلاء الذين يعملون من أجل تقدم أنواركم (١) » .

ويحاول سان سيمون أن يقف على حركة المعرفة العلمية ، فيقول إن هناك نوعين من الأعمال العلمية : أحدهما هو البحث عن الوقائع العلمية والثاني هو العمل على تحسين نظرياتها . فن أصحاب الاتجاه الثاني نجد ديكارت ومن نحاه نحوه ، ومن أصحاب الاتجاه الأول نجد نيوتن Newton ولوك Locke فالأول وصل إلى الجاذبية والثاني وصل إلى كمال الفكر الإنساني .

ومن رأى سان سيمون أنه « من أجل تقدم العلم ، ومن أجل سعادة الإنسانية ومن أجل مجد الأمة الفرنسية ، فإن من واجب المعهد الفرنسي أن يعمل لتحسين النظريات ، وأن يعود إلى قيادة ديكارت (٢) » .

ويذهب سان سيمون إلى القول بأن الآثار الناتجة عن العلم مؤكدة ولكنها بطيئة ، ولهذا فإن عددا قليلا من الناس يهتم بها ، في حين أن القوة الحقيقية للعلم طوى على مدى انتشارها بين عامة الشعب وعلى مدى تقبلها من هؤلاء العامة . ومن المهم أن نكشف عن حقيقة ثابتة في كتابات سان سيمون ، وهو أن أي موسوعة علمية يمكن أن ينضوى تحت لوأها كل ما هو غير ديني ، وقد كان هذا هو هدف أصحاب الموسوعة العلمية القديمة أمثال « دالمبير » و « ديلرو » Diderot . هذا الاتجاه يعتبره سان سيمون اتجاها علمياً لا تشوبه شائبة دينية ، ولكنه كان

(١) نفس المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) مقدمة للأعمال العلمية في القرن ١٩ (١٨٠٨) في مؤلفات مختارة الجزء الأول

اتجاهها سلبياً، وهو لهذا يرى إنشاء موسوعة جديدة وضعية إنشائية . فالموسوعة القديمة لم تتمكن من استكمال تنظيم المذهب الوضعي كما يجب أن يكون . فع ان أصحاب هذه الموسوعة قد حاولوا أن يجعلوا منها كتابا « يمكن أن يحل محل سفر التكوين ، وأن يكون في مستوى أرقى منه من حيث التفاصيل العلمية ومن حيث الآراء العامة ومن حيث الفهم المنهجي^(١) » ، إلا أن هذا الكتاب لم يقم إلا بتنظيم غير واف للمذهب العلمي بالرغم من أنه نجح تماما في استبعاد الجوانب الوهمية التخمينية من أعماله .

كما أن سان سيمون يأخذ على الموسوعة العلمية القديمة أنها لم تدخل العلوم جميعها في وحدة منهجية . ولهذا كانت مهمة العلوم غير محددة . وفائدتها غير واضحة ، مما يجعل من الضروري تعرف أساسها المشترك إذا أردنا الاستفادة منها . والأساس المشترك في نظر سان سيمون يجب أن يكون هو « العلم العام » أو « الفلسفة الوضعية^(٢) » .

ومن هنا اختلف النقاد في تفسير مدلول العلم العام عند سان سيمون فبينما نجد أن دوركيم Durkheim يؤكد أن هذه الفكرة هي التي مهدت الطريق إلى فلسفة كونت الوضعية ، نجد أن هنرى جوهيه Henri Gouhier يقول إن كونت لم يضع العلوم مع الفلسفة في مستوى واحد ولكنه يجعل من الفلسفة بحثا تركيبياً .

ويرى سان سيمون أن وحدة العلوم ترجع إلى النشاط الإنساني في صورته الجمعية والفردية ، ويتميز ذلك النشاط بأنه مادي أكثر منه نشاط روحي ، وهو يظهر في الإنتاج الاقتصادي وفي الصناعة ، وفي الصراع ، وفي النظم الاجتماعية . ولهذا لن يتيسر لنا الوصول إلى مبدأ وحدة العلوم دون الالتجاء إلى المجتمع وتحليل الطريق الذي يسلكه في سيره ، والوقوف على مكان العلوم في النشاط الكلي العام للمجتمع .

(١) مشروع موسوعة علمية لكلود هنرى سان سيمون (١٨٢٠) نشر في المجلة الاشتراكية

عدد إبريل ١٨٩٩ .

(٢) راجع خطاب إلى ردرن Redern (١٨١١) الجزء الأول ص : ١٠٩ .

ومن المهم أن ندرك أن كلمة « وضعى » Positif وكلمة « فلسفة » Philosophie في كتابات سان سيمون لها دلالة تختلف تماما عن دلالتها عند أوجست كونت . فكلية « وضعى » عند سان سيمون تعنى فعال actif ، وملازم لطبيعة الشيء immanent ، ومستقل استقلالاً ذاتياً autonome ؛ وكلمة « فلسفة » تعنى دراسة النشاط الإنسانى فى جانبىه الفردى والجمعى ، وجانبىه المادى والروحى ، أو بمعنى آخر دراسة النشاط الإنسانى الشامل . وقد أخذت هذه الدراسة اسم « علم الإنسان » Science de l'homme أو « الفيزيولوجيا الاجتماعية Physiologie sociale وهذا هو ميدان علم الاجتماع .

ويؤكد سان سيمون أن النشاط الجمعى الإنسانى روحى ومادى فى الوقت نفسه ، وأنه لا يمكن أن تفصل هذين المظهرين المرتبطين ارتباطاً وثيقاً ، وأن كفاية الفكر الإنسانى فى الناحية الروحية والناحية المادية متعادل ، فهناك اكتشافات أمكن القيام بها فى أحد الجانبين أو كليهما ، وأن تقدم هاتين الكفتين يساهم أيضاً فى تقدم الحضارة^(١) .

ويشير سان سيمون فى بحثه عن « الجاذبية العامة » (١٨١٣) إلى أن المادية والروحية ليسا إلا تجريدات للنشاط الجمعى الذى هو مجهود موحد ، فنحن نعتبر حتى الآن روحانيين هؤلاء الذين كان من الواجب أن نسميهم ماديين ، وماديين هؤلاء الذين كان من الواجب أن نعتبرهم روحانيين . فهل لا يعتبر تجسيد شيء مجرد نوعاً من المادية ؟ وهل لا يعتبر استخلاص قانون من وجود الله نوعاً من الروحية^(٢) ؟ « .

وفى بحثه عن « علم الإنسان » يتناول سان سيمون موضوع الفيزيولوجيا الاجتماعية بالدراسة والتحليل ، وينوه بما كان للعلماء فيك دازير Vicq d'Azyr وكابانى Cabanis وبيشا Bichat وكندرسية Condorcet من فضل فى توجيهه إلى

(١) تعاليم الصناعات : المجلد العاشر ص : ٤٤ .

(٢) بحث عن الجاذبية العامة ، المجلد الأول ص : ٢٣٨ و ٢٣٩ .

ضرورة قيام علم الإنسان على أساس الفيزيولوجيا الاجتماعية . كما أنه يخص بالذكر الدكتور « بوردين » Burdin والدكتور « بوجين » Bugin والمؤرخ « ألتر » Oelsner فهم الذين أفهموه ماهية الفيزيولوجيا ، وكيف أن علم الإنسان يمكن أن يجد فيها أساسه أو قاعدته .

والفيزيولوجيا الاجتماعية في نظر سان سيمون تمثل الجزء الأساسي للفيزيولوجيا العامة ، « التي تكون موضعا لاعتبارات أكثر أهمية من الفيزيولوجيا الخاصة وعلم النفس ، فهي تنظر إلى الأفراد كعناصر في الهيئة الاجتماعية ، الذي تعنى بدراسة وظائفه العضوية بنفس الطريقة التي تدرس بها الفيزيولوجيا الخاصة وظائف الأفراد^(١) » . ذلك لأن المجتمع ليس مجرد تجمع بسيط لكائنات حية تتحكم فيها الإرادة الفردية ، ولكنه عبارة عن آلة حقيقية منظمة تتعاون أجزاؤها في سير المجموع . ولا يعدو تاريخ الإنسانية أن يكون تاريخ حياة العنصر الإنساني ، أي فيزيولوجيا تطورات أعمارها المختلفة .

والفيزيولوجيا الاجتماعية عند سان سيمون تعتمد على التاريخ ، وعلى الحضارة ، وعلى الإنتاج الاقتصادي والإنتاج الروحي ، وعلى صراع الجماعات والطبقات الاجتماعية ، ولا تعتمد إطلاقا على البيولوجيا .

وفي بحثه عن « علم الإنسان » يطلب منا سان سيمون أن نسترجع إلى ذاكرتنا الطريق الذي سلكه التفكير الإنساني منذ نشأته ، وعلى الأخص منذ القرن الخامس عشر . إننا سوف نجد أن التفكير الإنساني اتجه منذ هذا القرن إلى الاعتماد على الملاحظة ، فأصبح الفلك والطبيعة والكيمياء من علوم الملاحظة ، « ونستخلص من هذا بالضرورة أن الفيزيولوجيا العامة التي يمثل علم الإنسان الجزء الرئيسي منها ، سوف تعالج بالمنهج المتبع في العلوم الطبيعية الأخرى ، وأنها

(١) مذكرات عن علم الإنسان (١٨١٣) في مؤلفات منخارة Lemonnier (١٨٥٩)

سوف تدخل في التعليم العام عندما تصبح وضعية^(١) . ذلك لأن العلم العام كان من الضروري أن يعتمد على التخمين ما دام أن العلوم الخاصة كانت كذلك . ولكن عندما تصبح العلوم الخاصة وضعية . فإن العلم العام سوف يكون وضعياً بالضرورة . « وهذا ما سوف يحدث في العصر الذي تكون فيه أسس الفيزيولوجيا وعلم النفس قائمة على وقائع تخضع للملاحظة والمناقشة^(٢) . »
 ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن قيام علم الإنسان سوف يؤدي بالضرورة إلى قيام تنظيم جديد في نظم الدين والسياسة والأخلاق . ونظم التعليم أيضا . «لأن نظم الدين والسياسة العامة والأخلاق والتعليم العام ، ليست شيئا آخر سوى تطبيقات لنظام من الأفكار . أو - إذا فضلنا - ليست إلا نظاما منظورا إليه من زوايا مختلفة^(٣) . »

ويتساءل سان سيمون « ما هي العقبة التي تعترض - حتى اليوم - قيام معرفة فيزيولوجية للمجتمعات الإنسانية ؟ » ويجيب على ذلك قائلا : إنه الصراع الذي وجد دائما بين عناصر الجسم الاجتماعي سواء بين الرؤساء ومستخدميه ، أو بين الدولة والمجتمع الاقتصادي أو بين الطبقات الاجتماعية . ويؤكد أن المجتمع قد وصل الآن إلى درجة من النضج تمكنه من تعرف النظام الذي يلائمه . ولهذا فإن سان سيمون يؤكد أنه قد آن الأوان لإنشاء علم للإنسان ، وأن نقطة البداية في إنشاء هذا العلم هي الفيزيولوجيا الاجتماعية .

ومن المهم أن نبحت عن السبب في استخدام سان سيمون لاصطلاح « الفيزيولوجيا » وهل هناك ارتباط بين الفيزيولوجيا والبيولوجيا في أفكار سان سيمون؟ يمكننا الوصول إلى جواب لهذا السؤال إذا رجعنا إلى كتاباته عن أهمية « فيك دازير » و « بيشا » و « كاباتى » . فمن المعروف أن هؤلاء العلماء قد تناولوا

(١) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .

موضوع الفيزيولوجيا بصورة واسعة جداً ، وحاولوا الوصول إلى نظرية للمجهود
الإنسانى الشامل متضمنة الجوانب النفسية والأخلاقية والعلمية وكافة مظاهر
النشاط الإنسانى . هذه الفيزيولوجيا التى اعتبرها فيك دازير وبيشا وكابانى كقاعدة
للمجهود الإنسانى ، أصبحت الأساس المشترك لقيام علم الإنسان .

كما أنه من المهم أن نميز بين « الفيزيولوجيا » Physiologie وبين « الطبيعة »
Physique . فالطبيعة تتناول بالدراسة الأجسام الخام ، بينما الفيزيولوجيا موضوع
دراستها الأجسام المنظمة والحياة ، وعلى هذا فإن عنصر الحيوية والحياة فى
ثورانها وسيرها ، هو الذى يميز علم الإنسان الذى هو « فيزيولوجيا سامية^(١) » .
Physiologie transcendante .

ومن رأى سان سيمون ، أن علم الأجسام المنظمة والحياة ينقسم إلى
« فيزيولوجيا خاصة » تختص بدراسة نشاط وعمل الأعضاء فى مختلف الأجناس
الحيوانية ومن بينها الجنس البشرى ، وإلى « فيزيولوجيا عامة » أو « فيزيولوجيا
اجتماعية » تختص بدراسة الحياة والنشاط فى المجتمعات الإنسانية .

وإذا تعمقنا فى كتابات سان سيمون نجد ما يوضح لنا أن الفيزيولوجيا
الاجتماعية بعيدة كل البعد عن البيولوجيا . فهو يذهب فى مقاله عن « التنظيم
الاجتماعى » إلى القول بأننا « إذا نظرنا إلى الطريقة التى ينمو بها الأفراد والجنس
البشرى ، من وجهة النظر الأخلاقية ووجهة النظر الجسمانية ، فإننا نجد أن هذا
النمو يحدث بطريقتين مختلفتين ، ومع ذلك فهى تتجه نحو هدف مشترك^(٢) » .
وفى « رسائل إلى أحد سكان جنيف » يتكلم عن الفيزيولوجيا قائلاً : « لأنه
على اعتبار علاقتنا الاجتماعية بمثابة ظواهر فيزيولوجية ، فإننى تصورت المشروع
الذى أعرضه عليكم^(٣) » .

(١) نفس المرجع السابق : ص ٤٣ .

(٢) فى التنظيم الاجتماعى (١٨٠٤) مقال لم ينشر إلا بعد وفاة سان سيمون . مؤلفات

سان سيمون وأفانثان المجلد ١٠ ص : ١١٠ .

(٣) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) المجلد العاشر ص : ٤٤ .

فدراسة الفيزيولوجيا الاجتماعية عند سان سيمون هي في الحقيقة دراسة
وضعية للمجتمع في حالة الحركة La Société en acte . ونتيجة للملاحظات
الفيزيولوجية ، فقد تبين أن المجتمعات تخضع لقوتين أخلاقيتين يعملان بالتناوب ،
ولهما نفس القوة ، إحداهما هي قوة العادة ، والأخرى هي التي تنتج عن الرغبة
في الابتكار . وبعد فترة زمنية ، تصبح العادات بالضرورة سيئة ، لأنها قامت
تبعاً لحاجات لم تعد اليوم مرتبطة بالحاجة الحقيقية للمجتمع . ولهذا يبدأ الشعور
بالحاجة إلى أشياء جديدة ، هذه الحاجة تمثل الحالة الثورية الحقيقية التي تستمر
حتى يأتي الوقت الذي يعاد فيه تكوين المجتمع بطريقة تتفق مع حالته وطبيعته .
ويذهب سان سيمون إلى القول بأن الفيزيولوجيا الاجتماعية يمكن أن يطلق
عليها اسم « علم الحرية » Science de la Liberté ما دام أن الحياة الاجتماعية
تتضمن التجديد والإصلاح والتحفز والثورة . « فالتعلق بالحرية وحده لا يكفي . .
وإنما نحن في حاجة - بصفة خاصة - إلى علم للحرية^(١) » وبالرغم من أن علم
الحرية له حقائقه وتعميماته إلا أنه غير معروف إلا من عدد بسيط من الأفراد .
وأنا « إذا أردنا أن نكون أحرارا ، فلننشئ حريتنا بأنفسنا ، ولا نحاول أن ننتظرها
إطلاقا بطريقة أخرى^(٢) » .

من هذا يتبين لنا أن الفيزيولوجيا الاجتماعية بوصفها دراسة للنشاط الجمعي ،
يجب أن تأخذ في اعتبارها إلى جانب العادات ، دراسة أخرى على جانب كبير من
الأهمية هي دراسة الطموح ، والاتجاهات ، والمشاعر ، والإرادة الجمعية ، والتحفز ،
ففي هذه الجوانب بصفة خاصة تصبح الفيزيولوجيا الاجتماعية علما للحرية الجمعية .
ويؤكد سان سيمون أن عصر العلوم اللاهوتية لم يعد يلائم ظروف المجتمع
المتطور ولا طبيعة الحياة فيه ، فقد لاحظ عامة الشعب منذ زمن طويل أن أعمالهم
اليومية لا اتصال لها على الإطلاق بالأفكار اللاهوتية ، وأن رجال الكهنوت

(١) الصناعة ، القسم الثالث ، ١٨١٨ خطابات إلى أمريكي ص : ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص : ٢١٢ .

لا يمكنهم أن يبصروهم عن حقائق هذه الأعمال في جوانب الحرف أو الصناعات ، ومن هنا بدأوا يتخلون عن استشارة الكهنة ، وانصرفوا عنهم إلى رجال العلم . ولكن مما لاشك فيه « أن هذا الاتصال لا يزال بعيداً جداً عن أن يكون قويا بالدرجة التي يمكن أو يجب أن يكون عليها ، وهذا يرجع لا إلى قلة رغبة العامة في التثقف ، ولكنه يرجع إلى قلة الوسائل التي في يديها ^(١) . فالعامة — في نظر سان سيمون — أكثر رغبة وتشوقا إلى التثقف من هؤلاء الكسالى الذين يقضون أوقاتهم في اللهو وفي الصالونات ، ذلك لأن أعمال العامة بطبيعتها تدفعهم إلى الإحساس بأهمية التثقف . وقد ساعد إقبال عامة الشعب على التثقف إلى الإيمان بأهمية العلم وبفضل العلماء في السير بالإنسانية في طريق التقدم .

ويذهب سان سيمون في بحثه عن « علم الإنسان » (١٨١٣) إلى القول بأن الإنسانية تمر في تطورهما بعصور ثلاث : الأولى تخمينية يذهب من تعدد الآلهة إلى إله واحد ، والثاني وسط بين التخمين والواقعية يذهب من تصور علة غير منظورة إلى تصور القوانين ، والثالث واقعي يرمي إلى تفسير العالم بقانون واحد ^(٢) . وأن هذا العصر الأخير قد بدأ منذ فترة وجيزة .

ويقول سان سيمون أنه لما كانت العلوم هي الصورة الحقيقية للتفكير الإنساني ، فإنها لا بد أن تمر — شأنها في ذلك شأن كافة مظاهر التفكير الإنساني — بهذه العصور الثلاث ، وبهذا يؤكد سان سيمون الترابط الطبيعي بين الدين والعلم ، ويؤكد أنه في كافة العصور كان العلم دائماً ذا مظهر ديني ، لأن كافة الاكتشافات لم تظهر إلا داخل جدران المعابد .

وفي هذا البحث أيضا يؤكد سان سيمون أن كافة مظاهر التفكير الإنساني التي سبقت العصر الذي بدأ فيه هذا التفكير يعتمد على الملاحظة والنقد ، يجب

(١) المنظم ، الملزمة الثانية (١٨٢٠) في مؤلفات سان سيمون وألفنتان الجزء ٢٠ ص : ١٥٣

(٢) مشروع موسوعة علمية لكلود هنري سان سيمون (١٨٢٠) — مجلة الاشتراكية عدد

أبريل سنة ١٨٩٩ .

أن تعتبر كأعمال تمهيدية. فإن العلم لا يمكن اعتباره علماً وضعياً إلا في العصر الذي تصبح فيه العلوم خاضعة للملاحظة. وينسب سان سيمون دوراً خطيراً إلى سقراط وإلى الازدهار العلمي الذي يرجع الفضل فيه إلى الدور الذي قام به ديكارط وكندرسية في تمهيد الطريق أمام الفكر الإنساني ليواصل سيره التقدمي.

وفي مشروع « الموسوعة العلمية الجديدة » يحاول سان سيمون أن يبرز أهمية أفكار كل من « بيكون » و « ديكارط » في السيطرة على العلم الحديث. ففي كتاب « الأداة الجديدة للعلوم » *Novum Organum Scientiarum* الذي ظهر في عام ١٦٢٠، يشير بيكون بضرورة تخليص العلم من الأفكار المتزلة، وضرورة إخضاعه بكلياته وجزئياته للملاحظة العلمية « وأنه من الواجب في كلمة واحدة قلب النظرية اللاهوتية رأساً على عقب لإقامة مذهب وضعي^(١) ».

وبعد ظهور « نوفام أورجانم » بقليل ظهر منهج ديكارط المعروف « بالدوامات » *Les Tourbillons*. ذلك المنهج الذي يقول عنه سان سيمون أنه رائع لسببين أولهما أنه لم يتخلل تكوينه أية فكرة متزلة، وثانيهما أن مؤلفه قد حدد وجهة النظر التي يجب أن يتخذها المنظم العبقري الذي يباشر خطة البنيان العلمي العام بصورة ثابتة. ولكن هذا المنهج يعتبر معيباً بسبب أنه « ينقصه الهدف الذي حدده بيكون، وهو تشييد العلم في مجموعه وفي جزئياته على الملاحظة^(٢) ». ويستطرد سان سيمون قائلاً: إنه يجب علينا أن لا نوجه اللوم إلى ديكارط، وإنما يجب أن « يوجه اللوم إلى النظام العظيم للأشياء الذي جعل الأفراد والإنسانية نفسها لا تسيران إلا ببطء في المجال العلمي^(٣) ».

وفي بحثه بعنوان « آراء أدبية وفلسفية وصناعية » يقول إن الاكتشافات الهامة لم تكن أبداً وليدة الصدفة، وإنما هي نتيجة لسلسلة من الأعمال التي هيأت

(١) و (٢) ، (٣) مشروع موسوعة علمية لكلود هنري سان سيمون (١٨٢٠) - مجلة الاشتراكية عدد أبريل ١٨٩٩.

الفكر الإنساني لتصورها أو لإدراكها « فاكشاف البوصلة الذى تم قبل القرن الخامس عشر بفترة طويلة من جانب ، والتقدم الذى حدث فى فن الملاحظة أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر من جانب آخر ، هما اللذان زودا الأوربيين بوسائل كشف القارة الأمريكية ، ذلك الكشف الذى كانت لنتائجه أعمق الآثار الفلسفية على نظام الأفكار ، وذلك بتعريف الناس - بصورة مادية - أبعاد الكوكب الذى يقطنونه^(١) » . كما أن كشف البناء الحقيقى للمجموعة الشمسية بمعرفة الكاهن البولندى « كوبرنيك » Copernic إنما يرجع إلى المشاهدات الفلكية التى تمت طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى جانب التقدم فى العلوم الرياضية . فهذا الكشف لم يكن وليد الصدفة وإنما يعتمد على التحول من الجانب اللاهوتى إلى الجانب الوضعى والاعتماد على الملاحظة فى تقرير الحقائق ، وبهذا « توثق بالإجماع - منذ قرن تقريبا - الاعتقاد فى عدم حركة الأرض ، وأقر العامة النظرية الفلكية الحديثة ، وأولوها قدرا من الثقة لم يمنحوه من قبل على الإطلاق للمعتقدات الدينية القديمة^(٢) » .

ويُرجع سان سيمون هذه الثقة إلى تحول العامة عن المعتقدات اللاهوتية إلى الاعتقاد فى العلم والعلماء . وقد ساعدت هذه الثقة فى تمكين رجال العلم من الاستمرار فى بحوثهم واكتشافاتهم .

ويؤكد سان سيمون أن التقدم العلمى لن يؤدي إلى الظلم أو السيطرة وأن « الخوف من أن نرى فى يوم من الأيام قيام حكم استبدادى يعتمد على العلوم ، لهو أمر خيالى سخيف بقدر ما هو غير معقول ولا يمكن أن ينشأ إلا فى أذهان غريبة تماما عن كل فكرة وضعية^(٣) » .

(١) آراء أدبية وفلسفية وصناعية (١٨٢٤) ص : ٥٤ .

(٢) المنظم ، الملزمة الثانية (١٨٢٠) فى مؤلفات سان سيمون وألفانتان . الجزء ٢٠ .

ص : ١٥٤ .

(٣) نفس المرجع السابق . ص : ١٥٨ .

السياسة والمجتمع

يرى سان سيمون أن المجتمع البائد كان يقوم على طبقات ثلاث : طبقة النبلاء ، والطبقة البورجوازية أو الطبقة الوسطى ، وطبقة الشعب أو الطبقة الأكثر عدداً ، وهي التي تنادى بالمساواة لأنها تعيش في ظروف غير عادلة . ويرجع سوء التنظيم الاجتماعي - في نظر سان سيمون - إلى أن العلاقة القائمة بين هذه الطبقات أساسها السيطرة . لأن الشعب يخضع للحكام الذين منحهم المجتمع هذه الميزة .

ويرى سان سيمون في النظام النيابي السبيل إلى الاستقرار والسلام الدائم ، ففي مؤلفه الذي عنوانه « في إعادة تنظيم المجتمع الأوربي » (١٨١٤) والذي عنوانه الإضافي : « في ضرورة تجميع شعوب أوروبا في وحدة سياسية واحدة مع المحافظة على الاستقلال القومي لكل منها وسائل ذلك » ، يقول سان سيمون أن فرنسا وإنجلترا يعتبران أكثر الدول تقدماً من الناحية الاجتماعية والسياسية ، لأنهما تعيشان في ظل نظام نيابي ، وعلى ذلك فن واجبهما أن توجهها بأى الدول الأوروبية في نفس الاتجاه . فيحل النظام النيابي محل النظام الطبقي الإقطاعي . وفي الوقت الذي كان فيه مؤتمر فيينا منعقداً لتقرير مصير دول أوروبا التي غيرت من وضعها الحروب ، كان سان سيمون يقترح برلماناً أوربياً على النظام الإنجلوفرنسى بقيادة إنجليزية ، لأن الإنجليز لهم خبرة قديمة في الحياة النيابية ، وأن خبرة فرنسا ترجع فقط إلى ميثاق يونية عام ١٨١٤ .

ويقترح أيضاً تأليف هذا البرلمان الأوربي من التجار والعلماء والمشرعين ورجال الإدارة على أن تكون الغالبية فيه للملاك ، ويمكن أن يتضمن عدداً

من غير الملاك إذا كانوا أهلاً لهذه العضوية (١) .

وفي هذا المؤلف يرى سان سيمون أن السياسة باعتبارها محور العلوم الإنسانية . يجب أن تقوم على الملاحظة العلمية ؛ فكافة العلوم ليست سوى مسائل تستلزم الحل والفحص ، ولا يختلف أى علم منها عن الآخر إلا باختلاف طبيعة هذه المسائل نفسها . ولهذا فإن الطريقة التى تستخدمها بالنسبة لبعضها يجب أن تلائمها جميعاً .

ويعيب سان سيمون على السياسة أنها لم تتبع منهج العلوم ، فتعتمد على الملاحظة فى تقرير حقائقها ، مما أدى إلى عدم صلاحية أحكامها للتعميم . ويرى سان سيمون أنه قد آن الأوان لكى تنمو السياسة كعلم وتخرج عن الطوق المفروض عليها ، لأن صالح المجتمع نفسه يستلزم ذلك ، إذ أن غموض المبادئ السياسية وتناقضها كان فى كثير من الأحيان سبباً فى الاضطرابات الاجتماعية .

ويأخذ مثالا لذلك ، المجتمع الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، فيقول إنه مجتمع فاسد ما دام أن الأثرياء يزيدون فى ثروتهم على حساب الفقراء ، وما دام الجهل والكسل والانغماس فى الملذات تهيمن على الساسة ورجال الحكم فى المجتمع ، وما دام الأشخاص الأكفاء العاملون لا يستخدمون إلا كعناصر مساعدة ودون أن يكون لديهم القدرة على الاستقلال فى تصرفاتهم ، وما دام غير القادرين هم الذين يكلفون برعاية القادرين من المواطنين ، وما دام المنحلون خلقياً هم الذين يدعون لتنشئة الفضائل فى المواطنين ، وما دام كبار المجرمين هم الذين يحاكمون أخطاء صغار الجانحين (٢) .

والمجتمع الجديد - فى نظر سان سيمون - لا بد أن يستخدم التعاون بدلا من السيطرة ، بحيث تقوم العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس التكاتف

(١) فى إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى . مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، المجلد ١٥ ،

ص : ١٩٦ .

(٢) تعاليم الصناع ، مؤلفات مختارة ، الجزء ٣ ص : ٦٧ و ٦٨ .

والتعاون بدلا من وجود تابع ومتبوع . ولن يتكون المجتمع إلا من فئتين من المواطنين : هؤلاء الذين يعملون من جانب . وفئة المتبطلين التي يجب أن تتلاشى بالتدرج من جانب آخر ، لأن هناك قوة حقيقية في طريقها إلى الظهور هي قوة الصناعة^(١) .

ويبدى سان سيمون أسفه ، إذ يلاحظ أن المشرعين والميتافيزيقيين ، هم الذين يديرون دفة الأمور العامة ويشغلون أهم وظائف الحكومة . وأن رأيهم هو المفضل في مجلس النواب .

ولا يتردد سان سيمون في مهاجمة المشرعين . ولا يخفى كراهيته لهم . وينعهم بصفة البورجوازية . بالمعنى القديم لهذه الكلمة التي كانت تطلق على أولئك الذين لا ينتمون إلى النبلاء . ولكنهم يعيشون دون عمل شأنهم شأن النبلاء^(٢) .

ولذا فهو يرى تحرير الأداة الحكومية منهم . وإلا فإن الثورة الفرنسية تكون قد فشلت في أداء رسالتها . ولن تستقر الأمور في المجتمع بأى حال من الأحوال^(٣) . ويطالب برفع مستوى معيشة عمال الزراعة وعمال الصناعة على السواء . والتخلي عن الأساليب المنافية للإنسانية في استغلالهم لصالح أصحاب رؤوس الأموال . وعلى الحكومات أن ينصرف اهتمامها إلى تحسين حال هذه الطبقة التي لا تلقى أى عناية . وأن ينظر إليها كعنصر أساسي في تقدم الإنسانية وازدهارها .

ولن يتسنى للحكومة ذلك إلا إذا قامت بتسريح الجيوش المرتزقة . فلن يستقر السلام إلا إذا سرحت هذه الجنود . ويرد على المعارضين بأن تسريح

(١) المنظم (١٨١٩ - ١٨٢٠) في مؤلفات سان سيمون وأتفانتان ، الجزء ٢٠ ص : ١٧ - ٢٦ .

(٢) و (٣) في النظام الصناعي : مؤلفات سان سيمون وأتفانتان ، الجزء ٢١ ص : ٣٥ - ٣٦ .

الجيش النظامي سيجعل البلاد عرضة للغزو قائلًا : « ما من مرة تعرضت فيها فرنسا للغزو ، إلا وكانت جيوش المواطنين أنفسهم ، جيوش المدنيين الذين لم يحملوا السلاح من قبل ، هي وحدها التي تحمل عبء الدفاع عن الوطن »^(١) . فأمنية سان سيمون هي أن يرى المجتمع وقد ألقى سلاحه ، وامتنع عن التسلح ، واتجه نحو السلام المقيم .

ولهذا فهو يهاجم الاستعمار – شأنه في ذلك شأن فلاسفة القرن الثامن عشر – وإن كان يوافق على بقاء مستعمرات الهجرة والإسكان ، ويرجع ذلك إلى اعتقاده بأن هذه المستعمرات سوف تتحرر يوماً ما شأنها في ذلك شأن الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي مؤلفه بعنوان « تعاليم رجال الصناعة » (١٨٢٣) يعمل سان سيمون على إدخال فكرة الحكومة الميسرة ، أو الحكومة التي تخفف من أعباء الأفراد *Gouvernement à bon marché* في ذهن الرأي العام . يرى سان سيمون أن الاتجاه السياسي العام للغالبية العظمى في المجتمع هو أن تحكم بأيسر الوسائل الممكنة ، وأن لا تشعر بسيطرة هذا الحكم ، وأن يكون حكمها بواسطة أشخاص قادرين على تأكيد الاستقرار العام .

ويرى سان سيمون أن الاستقرار العام مهدد بشكل لم يسبق له مثيل ، ذلك لأن الحكومة في واد والشعب في واد آخر ، فالشعب يريد حكومة لا تحمله إلا أقل قدر ممكن من الأعباء . ولهذا سوف يظل السلام والأمن العام مهددين ما دامت الأعباء ستسير دائماً في اتجاه الزيادة^(٢) .

ومن أهم المسائل التي يعنى سان سيمون إلى إيجاد حل لها هي مسألة التعارض بين الحكام والمحكومين ، ويذهب إلى القول بأن « الشعب الفرنسي ، لم يعد به

(١) السياسي (١٨١٩) ، الملزمة الثانية ص ١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص : ٧٢ .

حاجة لأن يحكم ، أو بمعنى آخر لأن يؤمر ^(١) » وأن الإنتاج وتثقيف المواطنين وتنظيم الأمور هي الوسائل الفعالة لتحقيق سعادة الإنسانية . وأن الطريق الذي يجب أن تتبعه الحكومة بعد أن رسمته الأمة جيداً ، هو إلغاء السلطات التعسفية ، وإلغاء الامتيازات التي لا تقوم على الكفاءة والمميزات الشخصية ودعوة الأشخاص الذين يظهرون كفاية ظاهرة في العلوم الوضعية ، وفي الفنون الجميلة ، وفي الصناعة لتولي إدارة الشؤون العامة . وهذا أمر جوهري لأنه يتيح للعباقرة أن يصلوا إلى الصف الأول مهما كانت طبقتهم أو مركزهم الاجتماعي الذي أوجدتهم فيه حظهم أو مولدهم ، وبعبارة واحدة : « فإن الوسيلة التنظيمية المقترحة ، سوف تحقق لفرنسا ، أكثر الميزات السياسية وهي أن تحكم بأقل قدر ممكن من الأعباء وبأيسر الوسائل الممكنة ^(٢) » .

فأفضل النظم الاجتماعية في نظر سان سيمون هي التي تتيح للأفراد - الذين يكونون الغالبية في المجتمع - ظروفًا أسعد ما يمكن ، والتي تتيح لهم أنسب الوسائل والتسهيلات التي تمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية . ولن يتحقق ذلك إلا عندما يتاح للأفراد الذين يتصفون بمزايا خاصة وقدرة ممتازة أن يحتلوا الصف الأول في المجتمع ، دون اعتبار إلى الحسب أو النسب أو العنصر أو الدين .

ولهذا فإن سان سيمون يرى أن كبار رجال الصناعة وحدهم ، هم الذين يستطيعون أن يحققوا رغبات الرأي العام ، لأن نجاحهم في مشروعاتهم الخاصة هو أكبر دليل على كفاءتهم في التنظيم والإدارة . ولهذا يجدر بنا تكليفهم بإدارة الثروة العامة ، لأنهم أكثر الناس حرصاً على الاستقرار والسلام ، ولأنهم أشد المواطنين اهتماماً بالاقتصاد في النفقات العامة وفي تضييق نطاق الظلم الاجتماعي في كافة صوره .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن رفاهية المواطنين لا يمكن أن تتحقق

(١) مؤلفات سان سيمون وأفانثان ، الجزء ٢٠ ص ١٤٤ .

(٢) مؤلفات مختارة (الجزء الثاني) ص ٤٤٣ - ٤٤٥ .

إلا عن طريق تقدم العلوم والفنون الجميلة وأنواع الحرف والمهن المختلفة . وعلى هذا فإننا إذا نظرنا إلى الدور الذى يؤديه كل من الأمراء ، ورجال البلاط ، والكهنة ، والملوك الذين لا يعملون ، نجد أن كل هؤلاء لا يساهمون بدور مباشر فى تقدم العلوم والفنون والصناعات ، بل إنهم يعوقون بالضرورة رفاهية الشعب ، وذلك بمنعهم العلماء والفنانين من أن يصلوا إلى أسنى درجات الاعتبار فى المجتمع^(١) . وهذا يؤكد لنا « أن المجتمع القائم هو فى الحقيقة مجتمع مقلوب الأوضاع ، ما دام أن الشعب كان قد قبل كهدأ أساسى أن الفقراء يجب أن يكونوا كرماء نحو الأغنياء ، وبالتبعية أن أقل الناس يسراً يحرمون أنفسهم يوماً من جزء من ضروراتهم لكى يزيدوا فى كماليات كبار الملوك »^(٢) .

ويؤكد سان سيمون أن كل مجتمع سوف يصبح بالضرورة مصنعاً كبيراً أو خلية واسعة للإنتاج ، وحكومة هذا المجتمع يجب أن يتولاها رجال أكفاء هم رجال الصناعة ، بمعنى أن حكومة تقوم على أساس اقتصادى يجب أن تحل محل الحكومات السياسية^(٣) فالسياسة فى نظر سان سيمون هى « علم الإنتاج » ، والصناعة بالنسبة إليه هى حجر الزاوية فى سعادة الإنسانية^(٤) .

ومن رأى سان سيمون أن السياسة كما أنها علم الإنتاج ، فهى نتيجة للأخلاق . فى جميع الأزمنة ولدى جميع الشعوب . نجد اتصالاً مستمراً بين النظم الاجتماعية والأفكار الأخلاقية مما يدفع إلى الاعتقاد بوجود علاقة سببية بين الأخلاق والسياسة . فالأخلاق عبارة عن معرفة القواعد التى يجب أن تسود العلاقة بين الأفراد والمجتمع حتى يكون كلاهما سعيداً بقدر الإمكان . ولهذا فإن السياسة ليست سوى العلم الذى يعالج هذه القواعد بطريقة تجعلها مفيدة وميسورة فى تنظيمها ، وبمعنى آخر فإن السياسة مشتقة من الأخلاق

(٢٤١) المنظم (١٨١٩) مؤلفات سان سيمون وألفانتان : الجزء ٢٠ ص : ١٧ - ٢٦ .

(٣) تعاليم رجال الصناعة ، مؤلفات مخرارة ، الجزء ٣ ص ٦٨ .

(٤) مقدمة الأعمال العلمية فى القرن ١٩ - مؤلفات مخرارة ، الجزء الأول - ص : ٢٢٠ .

كما أن النظم والسنن الاجتماعية ليست سوى نتيجة لآراء وأفكار المجتمع نفسه « (١) وعلى هذا فن واجب الحكام أن يعملوا لسعادة المحكومين ، ويتحقق ذلك إذا أدرك الحاكِم أنه لم يوجد لينهى ويأمر ، ولكن لكي يكون مندوباً عن المحكومين ، مكلفاً بأعمالهم في المجتمع الذي يعيش فيه (٢) .

ويهدف سان سيمون في الكثير من كتاباته ، وعلى الأخص في بحثه بعنوان « آراء في الإجراءات الواجب اتخاذها ضد تكتل عام ١٨١٥ » إلى البحث عن الوسائل التي تساعد على لإقرار السلام في العالم بصفة عامة ، وفي المجتمع الأوربي بصفة خاصة .

فهل كان سان سيمون خيالياً في تفكيره هذا ؟ الحق إنه لم يكن خيالياً لا في تفكيره ولا في أساليبه لتنظيم السلام ، لأن وجود سلام دائم في أوربا كان أمينة كل شعوبها في عام ١٨١٤ . ولهذا لاقى كتابه عن إعادة تنظيم المجتمع الأوربي رواجاً كبيراً بين قرائه العديدين ، واكتسب أنصاراً بين فريق كبير من الأحرار . وبالرغم من النقد الذي وجه إلى سان سيمون في ذلك الوقت ، وعلى الأخص من جانب « بازان » Bazin الذي اتهم سان سيمون بأنه يتكلف الوطنية وهي بريئة منه ، فإنه وجد من فريق آخر ، في مقدمته عدد كبير من المحامين أمثال شارل كونت Charles Comte ودينويه Dunoyer ، تأييداً وتشجيعاً لدرجة أنهم وضعوا صفحات مجلتهم « الرقيب » Le Censeur تحت تصرفه ، وهي مجلة ذات اتجاه تحرري .

وفي عددي يناير وفبراير عام ١٨١٥ من هذه المجلة ظهرت مقالات لسان سيمون أثارت ضجة كبيرة واهتماماً متزايداً لمتابعيها . ففي المقالة الأولى ينادى سان سيمون بضرورة قيام الطبقة البورجوازية بإنشاء حزب للمعارضة ، ويظهر في هذه المقالة - لأول مرة في التاريخ الحديث - تعريف واضح دقيق للحزب

(١) نفس المرجع السابق : الجزء ١٩ ص ٣٠

(٢) نفس المرجع السابق : الجزء ١٩ ص ٣٥ - ٣٦ .

السياسى ، إذ يقول إن « الحزب » - يتكون فى اللحظة التى يستقر فيها افراده ، الذين تجمعهم الأهداف المشتركة ، على اختيار زعيم معين ، ينهض بنشاطه ، ويدبر شئونه بصورة تحقق الوحدة فى العمل ، وتؤلف بين وجهات النظر فى وقت واحد ، مما يعين بالضرورة على ظهور الحزب فى أقوى مظهر له (١) .

ويستشف من المقالة الثانية بمجلة الرقيب ، أن سان سيمون يتبين أن المثالية لا تكفى لإنشاء حزب سياسى ، ولكنه يجب على الحزب - بالإضافة إليها - أن يتخذ الوسائل التى تمكنه من تحقيق أهدافه بصورة لا تتنافى مع الأخلاق والمبادئ الإنسانية المتعارف عليها .

ويلاحظ أن نظرة سان سيمون إلى تكوين الحزب السياسى يتأبها التغير . وفى عام ١٨١٩ ، عندما كان منتمياً إلى حزب الأحرار Le parti libéral كان يطالب بأن تفتح الأحزاب السياسية أبوابها لجميع المواطنين الذين يؤمنون بالآراء التحررية مهما اختلفت طبقاتهم . ولهذا فهو يرى أن يتكون الحزب من المواطنين الذين ينفذون الأعمال بطريقة مفيدة فائدة مباشرة للمجتمع ، ومن هؤلاء الذين يديرون هذه الأعمال أو الذين يساهمون برؤوس أموالهم فى المشروعات الصناعية ، ومن هؤلاء الذين يساهمون فى الإنتاج عن طريق أعمال مفيدة يقومون بها من أجل المنتجين (٢) .

وعلى هذا فإنه ينصوى تحت لواء الحزب القومى كل من يعمل فى سبيل الإنتاج . ولا يمكن أن يسمح للأفراد الذين يستهلكون دون أن ينتجوا شيئاً ، والأفراد الذين لا تزدى أعمالهم أى فائدة تذكر للمجتمع ولا تخدم المنتجين بحال من الأحوال ، كما أنه لا يحق لكل من يعتنق مبادئ سياسية يؤدى تطبيقها إلى إضرار بالإنتاج أو تتجه هذه المبادئ إلى حرمان رجال الصناعة من حقهم فى أن يكون لهم أسمى درجات الاعتبار الاجتماعى ، لا يسمح ولا يحق لكل هؤلاء

(١) مجلة الرقيب ، عدد يناير ١٨١٥ « راجع جان دترى - ساس سيمون ص ٢٧ . »

(٢) الرجل السياسى ، المزمرة العاشرة ص : ٣٥٣ .

أن يكونوا أعضاء في الحزب القومي ، بل إنهم في الحقيقة بوضعهم هذا يكونون حزباً لا قومياً Anti-national (١) .

وبنها سان سيمون إلى أنه منذ أصبح المواطنون سواء أمام القانون ، عند إعلان حقوق الإنسان في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ ، لم يعد انتماء الفرد إلى الحزب القوي أو الحزب المضاد له أمراً يبيح وفقاً للمصادقات أو ظروف المولد أو غيرها ، ولكن طبيعة العمل الذي يزاوله الفرد والآراء التي يعتنقها هي التي تحدد إلى أي الحزبين ينتمي انفراد بالضرورة .

ولذا فإن « السيد دي لافاييت » M. de Lafayette وهو مزارع يدير بنفسه مزارعه الشاسعة ، والسيد « دي لاروشفوكو - ليانكور » M. de la Rochefoucauld Laintcourt وهو صاحب مصانع لغزل القطن ، ينتميان بالضرورة ، نتيجة لطبيعة العمل الذي يمارسانه ، وبسبب آرائهما التحررية ، إلى الطبقة الصانعة . بينما أن السادة « بارتملي » Barthélemy و « بلار » Bellart و « باستوريه » Pastoret الذين نشأوا من أبناء الطبقة الدنيا ، يعتبرون ضمن الحزب اللاقوي لأنهم رغبوا في ذلك وأرادوه (٢) .

ثم يتحول سان سيمون عن المطالبة بقيام حزب قومي ، إلى مطالبة كبار رجال الصناعة بإنشاء حزب يضم الطبقة الصانعة وحدها . ففي تعاليم الصانع التي نشرت في مارس ١٨٢٤ يقول سان سيمون : « إننا نوجه أنظاركم ، أيها السادة ، إلى أن إنتاج أعمالكم سوف يكون غنيمة تتنازع عليها وتلتهمها كافة الأحزاب السياسية التي سوف تقوم ، إذا لم تكونوا حزباً سياسياً يقوم بالدفاع عنها ضد جشع المستهلكين غير المتعجبين . وسوف تبيّنون بعد ذلك أن إصدار نشرة تعلن المبادئ والآراء الخاصة بحزب صناعي هو بالنسبة لكم الوسيلة الوحيدة الممكنة لإنشاء حزب سياسي متماسك (٣) . »

(١) الرجل السياسي ، الملتزمة العاشرة ص ٣٥٣ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٣٥٤ .

(٣) تعاليم اصناع ، ز مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث ص ١٧٤ .

الصناعة والطبقة الصانعة

للصناعة والطبقة الصانعة في كتابات سان سيمون ومؤلفاته مكانة مرموقة فهو يوليها أكبر قدر من العناية ، ويذهب إلى حد القول بأن الصناعة هي الوسيلة إلى الحرية ، وأنه لا يمكن للحرية أن تتأكد في مجتمع من المجتمعات دون قيام الصناعة في هذا المجتمع ، بل إن هذه الحرية لا يمكن أن تنمو وتنضج ويشند عودها ، إلا إذا اعتمدت على الصناعة^(١) .

والصناعة . في نظر سان سيمون ومدرسته ، ليست غاية في ذاتها ، وإنما هي وسيلة إلى غاية أسمى ، وهي الوصول بالمجتمع إلى حالة من الاستقرار السياسي والاجتماعي ، الذي تلاشى مع وجوده شيئاً فشيئاً جميع مظاهر السلطة ، وتحول إلى مجرد أعمال الصيانة وحفظ النظام العادية ، بل إن التنظيم القضائي نفسه يصبح غير ذي موضوع في مجتمع صناعي متكامل .

ويهمنا أن نقف على تحديد دقيق لمدلول « الصناعة » و « الصانع » في مذهب سان سيمون الاجتماعي . ففي مستهل كتاباته ، نجد أنه يعطى للصانع مدلولاً عاماً فيعني به كل من يعمل في سبيل التقدم ، وعلى هذا الأساس فإنه يعتبر أن رجال الصحافة التقديميين ، والعلماء التقديميين صناع ، لأنهم يعملون في سبيل التقدم . ثم يتحول سان سيمون في كتاباته الأخيرة عن فكرة التقدم إلى فكرة الإنتاج . ويصبح الصانع ، في نظره ، هو كل من يعمل في سبيل الإنتاج ، أو لكي يضع في متناول مختلف أفراد المجتمع وسيلة أو أكثر من

(١) الصناعة : في مؤلفات سان سيمون وألفانثان ، الجزء ١٩ ص : ٣٠ .

الوسائل المادية التي تشبع حاجاتهم أو ذوقهم الخاص ، ولهذا فإن الزارع الذي يئثر الحب ويربى الطيور والماشية يعد صانعاً ، والنجار والحديد وصانع الأقفال ، كل منهم صانع في مهنته ، وبالمثل صانع الاحذية وصانع القبعات والقمصان كل منهم صانع كذلك ، والتاجر والبحار الذي يعمل فوق البواخر التجارية صانع بالمثل . وكل هؤلاء ، يعملون على الإنتاج وعلى تيسير الوسائل المادية اللازمة لإشباع حاجات المواطنين وأذواقهم^(١) .

فالصناعة في نظر سان سيمون تعنى العمل في كافة صورته : العمل اليدوي والعمل العقلي ، العمل الإداري والعمل التنفيذي ، العمل التجاري والعمل الصناعي والعمل الزراعي سواء بسواء ، أما عدم الإنتاج فهو الملكية بدون عمل . فالأرستقراطيون أو البورجوازيون الذين يعيشون على ريع عقاراتهم ، وأصحاب رؤوس الأموال الذين يعيشون من امتصاص دماء الأجراء ، يعتبرون في رأى سان سيمون ، غير منتجين . في حين أن مالك الأرض أو العقار الذي يقوم بإدارته بنفسه يعد صانعاً ، وصاحب رأس المال مهما بلغت ثروته إذا قام بإدارة رأس ماله بنفسه يعتبر صانعاً مثله في ذلك مثل المؤلف الصغير الذي يؤلف كتاباً في الصناعة ويعد في نفس الوقت صانعاً .

ويرى سان سيمون أن طبقة الصناع يجب أن تحتل الصف الأول ، لأنها أكثر الطبقات أهمية ، ولأنها تعتمد على قواها الذاتية وأعمالها الخاصة في تدعيم كيانها . بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الطبقات الأخرى يجب أن تعمل لصالح الطبقة الصانعة ، لأن هذه الطبقات جميعها وليدة الطبقة الصانعة . وفي عبارة واحدة يقول سان سيمون : « ما دام كل شيء يعمل بواسطة الصناعة ، فإن كل شيء يجب أن يكون من أجلها^(٢) » ومع ذلك فإن الطبقة الصانعة لم تصل بعد إلى مكانتها الحقيقية في المجتمع .

(١) تعاليم الصناع ، في مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث ص : ٦٧ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٦٨ .

ويذهب سان سيمون إلى تأكيد أن الملاك العقاريين الذين لا يعملون بأنفسهم في سبيل الإنتاج ، يستفيدون دون أن يعرضوا أموالهم للمخاطرة . وعلى هذا فن الضرورى إعادة تنسيق العلاقة بين المالك والمزارع بصورة مماثلة للعلاقة القائمة بين أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يعملون وبين الصناع والتجار .

وعمال الصناعة في جميع أرجاء العالم أخوة ، لأنهم يعيشون في ظروف مماثلة ، يواجهون معاً نفس العقبات ، ويشعرون معاً بنفس الحقوق وبنفس الواجبات . فالصناعة وحدة واحدة ، يربط بين أفرادها المصالح المشتركة للمواطنين ، وحاجتهم جميعاً إلى الحرية والأمان ^(١) . وعلى هذا فإن المنتجين من جميع الطبقات ، وفي كافة البلدان ، هم أصدقاء بالضرورة . ولا شيء يمكن أن يحول دون توحيدهم .

ثم يذهب سان سيمون إلى القول بأنه « إذا كان لجميع الصناع المصالح نفسها فإنه ليس لديهم جميعاً نفس الوسائل ، فكل نوع من الصناعة يزود الذين يمارسونه بقوى خاصة . وبالمثل ، فإن صناع كل بلد يوجدون في أوضاع تتفاوت درجة ملاءمتها لمصالح الصناعة ، تبعاً للحكومة التي يعيشون في ظلها . إن للصناعة في كل مكان سيراً واحداً ، ولكن تبعاً للظروف التي وجدت فيها على اختلاف البلدان ، فقد اتصفت بطابع سياسى خاص . وأصبح لها هذا التأثير أو ذلك في إدارة الشؤون العامة ^(٢) » . ويضيف سان سيمون إلى ذلك أن هذه الاختلافات في الحالة السياسية للصناعة لدى الشعوب المختلفة ، لم تكن سبباً يعوق وحدة الصناعات القومية وإنما كانت - على العكس - حافزاً لتحالفها وتعاونها « لأن هذه القوى السياسية المتنوعة للصناعة ، دون أن تتعارض بالضرورة ، يمكنها - على العكس - أن تتوافق بطريقة مثمرة للوصول إلى هدف المنفعة المشتركة ^(٣) . »

(١) الصناعة : في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ١٩ ص : ٤٧ .

(٢،٣) نفس المرجع السابق : الجزء ١٩ ص : ٤٨ .

ويؤكد سان سيمون أن تحسين ظروف الطبقة الكادحة يتحقق في إلغاء الامتيازات التي تتمتع بها الطبقات غير المنتجة ، وفي تنمية الإنتاج المادي والتربية الاجتماعية . فهو يرى أن التربية بالنسبة للطبقة الكادحة ، أكثر أهمية للغاية من التعليم ، وأن هذه التربية تتحقق عن طريق ما أسماه « بالتعليم المتبادل » L'enseignement mutuel^(١) .

ويلقى سان سيمون على عاتق العلماء والفنانين ورجال الفكر عبء إثارة الرأي العام ، وحفز الطبقة الكادحة على الإحساس بأهميتها وبواجبها الاجتماعي فعن طريق الفنون الجميلة من شعر ورسم وموسيقى وغير ذلك يمكن أن يشعر المواطنون بمزايا الحضارة ، ويمكنهم أن يساهموا في مباحج الحياة التي كانت فيما مضى وقفاً على الطبقة الأرستقراطية وحدها .

فالعلماء والمفكرون الذين تقوم أعمالهم على الملاحظة والاستدلال ، يمكنهم أن يقدموا للطبقة الكادحة لوحة مزدهرة بنواحي التقدم الذي سوف تتجه إليه الإنسانية ، ويمكنهم أن يبينوا إمكانيات زيادة المباحج الحاضرة لصالح جميع طبقات المجتمع وعلى الأخص لصالح أكثر الطبقات عدداً وهي الطبقة الكادحة . فعلى عاتق هؤلاء الرجال من العلماء والفنانين يقع عبء إرساء أسس التعليم العام والقواعد الصحية للبيئة الاجتماعية في جوانبها المادية والأخلاقية^(١) .

(١) آراء أدبية وفلسفية وصناعية (١٨٢٤) ص : ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع السابق . ص : ١٢٣ ر ١٢٥ .

الدين والأخلاق

نجد الجذور الأولى لأفكار سان سيمون الدينية والأخلاقية في « رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه » (١٨٠٣) ، ففي هذه الرسائل يسعى سان سيمون سعياً أكيداً إلى البحث عن وسيلة للهوض بالإنسانية إلى أسمى درجات الكمال ، وإلى تنظيم البحث العلمي تنظيماً يجعله في متناول الناس جميعاً . ويخلص سان سيمون من هذا البحث إلى اقتراح تكوين جمعية من واحد وعشرين عضواً تتخيم الإنسانية . وتتخذ هذه الجمعية اسم « مجلس نيوتن » لتمثيل الإرادة الإلهية في هذا الكون . ولتتابع سان سيمون في إحدى تأملاته حيث يتصور أن الله يحدّثه ويوحى إليه بقيام ديانة جديدة هي « ديانة نيوتن » فيقول له : « إن مجلس نيوتن سوف يمثلني على الأرض ، فيقسم الإنسانية إلى أربعة أقسام يطلق عليها : إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية . وسوف يكون لكل قسم من هذه الأقسام مجلساً يتكون على غرار المجلس الرئيسي ، وسوف يرتبط كل فرد في العالم مهما كان موطنه بأحد هذه الأقسام وبالمجلس الرئيسي وبمجلس القسم الذي يتبعه . ويختب النساء في هذه المجالس على قدم المساواة مع الرجال (١) » .

وأهم ما يسترعى انتباهنا في هذه الرسائل هو أن سان سيمون يبعد عن نفسه شبهة اختراع ديانة جديدة ، ويضفي على نفسه صفة الرسل ، كما أنه أراد أن يورد على لسان الله فكرة المساواة بين الرجل والمرأة ، تلك الفكرة التي كان ينادى بها ، حتى يسكت معارضيه في منح المرأة حقها الكاملة أسوة بالرجل .

(١) رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣) في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان

لجزء ١٥ ص : ٥٨ .

ويحاول سان سيمون أن يقدم نظرية تاريخية للأديان ، يعتقد بمقتضاها أن الأديان كانت مظهراً شعبياً للعلوم فيما مضى . ولهذا يجب أن تنقرض الأديان طالما كان العلم الذى تقوم على أساسه علماً متأخراً فى مستواه عن علوم العصر الحديث . ويرى سان سيمون أن الدين الذى يتفق مع الإنسانية فى تقدمها يجب أن يكون دين العلم أو « دين نيوتن » حيث يحل فيه العلماء محل الرهبان والكهنة . ويرى سان سيمون أن عصر الآراء الوضعية قد بدأ ، ولا يمكن أن نعطي للأخلاق مقومات أكثر مما تحتاجه حياتنا الاجتماعية العملية . فروح القرن الذى نعيش فيه ، ومن باب أولى القرون التى ستتعاقب بعد ذلك ، تستلزم إنشاء أخلاق أرضية وضعية تتلاءم مع التطور العلمى والفكرى المعاصر (١) .

ولكى نبدأ فى بناء هذه الأخلاق الوضعية لا بد أولاً من إتمام إصلاح المجتمع ، حتى يمكن قيام أخلاق عامة ذات التزامات موحدة للحاكم والمحكوم على السواء ، فمن المعروف أن الحكام يجب أن يعملوا لسعادة المحكومين ، ولكن هذه القاعدة لا تتبع إلا نادراً ، لأن الحكام لا يتحلون بالصفات الأخلاقية . وكل ما نراه هو أن الحاكم يجب أن يأمر والمحكوم يجب أن يطيع ، هذه هى الصورة الأخلاقية التى تربط بينهما . « ولهذا لا يمكن علاج هذا النقص الأخلاقى إلا إذا أدرك الحاكم أنه لم يوجد لينهى ويأمر ، ولكن لكى يكون مندوباً عن المحكومين ، مكلفاً بأعمالهم فى المجتمع الذى يعيش فيه (٢) » . فإذا أردنا أن نقيم حياة أخلاقية سوية يجب أن يتولى رجال الصناعة مقاليد الحكم ، فهم وحدهم الذين يتحلون بالصفات الأخلاقية لأنهم يعملون ويهدفون إلى المنفعة الاجتماعية . ويتساءل سان سيمون كيف نستطيع أن نميز بين ما هو أخلاقى وبين ما يتنافى مع مبادئ الأخلاق ، ويقول لناخذ أساساً لذلك مبدأ السيد المسيح : « أحب قريبك مثل ما تحب نفسك ، واعمل للآخرين ما تريد أن يعمله

(١) الصناعة ، المجلد الثانى ، الجزء ١٩ ص : ٣٠ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٣٥ ، ٣٦ .

الآخرون لك ». يقول سان سيمون إن الحياة الصناعية طبقاً لمبدأ الأخلاق المسيحية حياة أخلاقية ، إذ أن كل من يعمل في الصناعة يستخدم وقته لخدمة أقربائه ، فهم يكرسون وقتهم وإنتاجهم في إشباع حاجات المواطنين ، وإدخال البهجة والسرور إلى نفوسهم . في حين أن كل من لا يعمل في الصناعة لا أخلاق له ، ما دام يستهلك فقط دون أن ينتج . وما دام يعيش عالة على الآخرين ، وما دام يستمتع بكافة مزايا عمل الصناعيين دون أن يعطيهم بديلاً عن ذلك شيئاً قد يفيدهم وما دام أنه لا يعمل لخيرانه مثل ما يعمله جيرانه له (١) .

ومع ذلك فهو يدعو إلى قيام أخلاق جديدة ، أخلاق دنيوية ، أخلاق تقوم على العمل والتعامل بمنأى عن كل نزعة روحية أو سواوية . فهو وإن كان يعترف في مؤلفه المعروف باسم « المنظم » بأن المسيحية في حالة ازدهار أكثر مما يتوقعه رجالها ، إلا أنه يتساءل عن أهمية ذلك الازدهار ما دام أن الأخلاق المسيحية قاصرة عن أن تكون هي الأخلاق الدنيوية . ولهذا فهو يرى إنشاء علم للأخلاق يقوم على الملاحظة والتعقل وحدهما (٢) .

وفي مجلة « الصناعة » يؤكد سان سيمون أن المسيحية قد أسدت خدمات جليلة إلى الأخلاق ، ومن غير الإنصاف أن ننكر ذلك ، ولكن يجب أن نقر بنفس الروح التي دفعتنا إلى الاعتراف بذلك أن عهد هذه الأخلاق قد انتهى ، وأن الزمن الذي كانت صالحة له قد ولى (٣) . ويتناول بالنقد المبدأ الأساسي للأخلاق المسيحية وهو « لا تعمل للآخرين ما لا تحبه لنفسك » فيقول إن هذا مبدأ يقوم على السلبية ولا يحتوي أي نوع من الإلزام لأنه ينطوي على تحذير وليس قائماً على أمر إيجابي . كما أن هذا لا يلزم الفرد في مواجهة

(١) الرجل السياسي (١٨١٩) الملمزة العاشرة ص : ٣٥٥ .

(٢) المنظم : الملمزة الثانية : ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) Introduction aux travaux scientifiques du XIXe Siècle (1807-1850), in (٣)

Ouvrage Choixien, T. 1, p. 250.

نفسه ولهذا فهو يتساءل عن قيمة هذا المبدأ الأخلاقي بالنسبة لإنسان يعيش في عزلة عن الآخرين .

ويوصى لذلك بالاستعاضة عن مبدأ الأخلاق المسيحية بمبدأ آخر هو « يجب على الإنسان أن يعمل ^(١) » فأكثر الناس سعادة هم أولئك الذين تتحقق لهم فرص العمل ، والأسرة السعيدة هي التي يستغل جميع أفرادها أوقاتهم استغلالاً مثمراً ، وأكثر الشعوب سعادة هي التي لا يكون بين أفرادها إلا قلة من الأفراد غير المنتجين . وفي الوقت الذي تنعدم فيه البطالة كلية تصبح الإنسانية في أزهى مراحلها ^(٢) .

والدين - شأنه في ذلك شأن كافة الظواهر الاجتماعية الأخرى - لا بد أن يتفق مع طبيعة المجتمع وظروف الحياة فيه . وما دام أن المجتمع المعاصر يعيش في ظل العلوم الوضعية ، فإن الدين يجب أن يكون بمنأى عن كل نزعة روحية أو سماوية ، وبعيد عن كل إرهاب أو شعور بالخطيئة ، ديانة تقوم على أخلاق دنيوية ، أخلاق فضيلتها العمل والتعامل فأكثر الناس سعادة - في نظر سان سيمون - هم أولئك الذين تتحقق لهم فرص العمل ، وفي الوقت الذي تنعدم فيه البطالة كلية تصبح الإنسانية في أزهى مراحلها . ويعطى سان سيمون لهؤلاء الذين يعملون في ميدان العلم والمعرفة أسمى درجات الأخلاق الدنيوية ، ويعتبرهم أكثر المواطنين سعادة لأنهم يحققون بعملهم سعادة الإنسانية جمعاء .

ويذهب سان سيمون إلى حد أنه يربط التطور الأخلاقي بتطور العلوم ، فيقول إن الإنسان يرتقى ويتقدم ، ومن الطبيعي أن تكون الأخلاق مرنة ومتطورة بحيث تسير ارتقاء الإنسان وتقدمه ، وأن تنجح هذه الأخلاق وجهة تقدمية بالمثل وأن تتبع التطور العلمي للإنسانية خطوة خطوة .

فهذا الاتجاه التطوري للأخلاق الذي ينادى به سان سيمون ينبع في

الحقيقة من فكرته عن الأخلاق العلمية ، وأن الأخلاق شأنها في ذلك شأن كافة العلوم المجردة تخضع للملاحظة والتجربة والقوانين الوضعية . ولهذا فإنه من الضروري أن يحل محل الأخلاق السماوية أخلاق أرضية وضعية ، تقوم فضائلها — لا على الخوف والرهبنة والاعتقاد في سوء المصير — وإنما تعتمد على فضائل إنسانية تقوم على العمل والتعامل والإنتاج والثقة بالنفس والاعتزاز بقدرتها على السيطرة على نوازع النفس والتحكم في الطبيعة .

والأخلاق الأرضية التي يرى سان سيمون أنها تنفق مع عصر العلوم الوضعية لا تضحي بالفرد مهما كانت الظروف ، وإنما يمكن أن تضحي بالجماعة . لدرجة أن سان سيمون يؤكد أن العقد الاجتماعي لم يتم على أساس حماية الحرية الفردية وإنما هدفه الأساسي هو تحقيق أقصى درجات السعادة للأفراد دون أن يعنى أن يكونوا أكثر تحراً عن ذى قبل . فالعقد الاجتماعي يهدف إلى قيام جماعة متناسقة تحيط الأفراد بسياج من الطمأنينة والسلام فحسب .

ويذهب سان سيمون في مؤلفه الذي اختتم به حياته الزمنية والفكرية والذي أسماه : « المسيحية الجديدة » إلى تأكيد أن جميع الصعاب التي تواجه قيام المجتمع الصناعي يكفى لزوالها أن يتمسك العلماء بالمسيحية التي لا تزال مبادئها الأخلاقية هي المبادئ الأخلاقية الوحيدة المعروفة لدى جماهير الشعب . يكفى أن يقوم العلماء بتنفيذ مبادئ الأخوة المسيحية في صالح الطبقة العاملة ، وعندئذ سوف يتجه المجتمع من تلقاء نفسه نحو تحسين ظروف الطبقة الأكثر عدداً والأشد حرماناً^(١) .

ولكن سان سيمون يريد أن يتجه العلماء إلى المسيحية في ثوبها الجديد ، والمسيحية التي ارتأى سان سيمون أنه لا غنى عنها لتنظيم المجتمع الاقتصادي مسيحية تتخذ صورة مبادئ لأخلاق اجتماعية ذات مظهر مسيحي .

(١) المسيحية الجديدة (١٨٢٥) في مؤلفات سان سيمون وألفانسان ، الجزء ٢٣ ، ص : ١١٨

وفي « المسيحية الجديدة » نجد أن التنظيم الجديد للمسيحية يشق كافة مبادئه الزمنية والروحية من المبدأ القائل بأن الناس يجب أن تتعامل كإخوة ، ويتجه التنظيم الجديد نحو توفير وسائل الحياة السليمة للطبقة الأكثر حرماناً في المجتمع^(١) .

يرى سان سيمون أن الأساس الأخلاقي في المسيحية الجديدة هو أهم ركن فيها ، وأن مظاهر الطقوس والعبادة لم يعد لها الاعتبار الأول في نظر المسيحيين الجدد ، وإنما هي عبارة عن وسائل مساعدة تهدف إلى تثبيت انتباه المريدين والمخلصين نحو المبادئ الأخلاقية السامية التي تتضمنها المسيحية الجديدة .

فالإنسانية في نظر سان سيمون لا يمكن أن تتحلل من الحافظ الديني والاعتقاد في وجود الله . ولهذا فهو ينادى بديانة تلائم تطور الإنسانية ، ديانة تهدف إلى وحدة الإنسانية والحب والله . فالإنسانية تعيش في نفس الوقت حياة زمنية موقوتة وحياة خالدة أبدية ، والأساس الذي يربطها بالكائن الأعلى هو الحب . ولا يمكن أن ترتبط به بطريقة أخرى ما دام أن فكرة الإنسان عن الله ليست سوى حالة من الاعتقاد بالوحدة والنظام والتناسق . فديانة المستقبل يجب - في نظر سان سيمون ومدرسته - أن تكون تبصيراً عن التفكير الجمعي للإنسانية ومظهراً لجميع معتقداتها ونظاماً لكافة تصرفاتها .

يظهر أن أفكار سان سيمون عن الدين والأخلاق متأثرة برواسب التفكير الفلسفي الذي ساد القرن الثامن عشر وبالترعة العدائية ضد رجال الدين . وقد يكون له العذر إذا أدركنا أنه لا يعادى الدين في ذاته ولكنه يعادى المسحة الأخلاقية الإرهائية التي تسوده . فهو يريد أن يستبدل بالرهبان والكهنة ورجال الدين العلماء ورجال الفكر الذين يمكنهم أن يأخذوا بناصر الإنسان والذين يمكنهم أن يقودوه إلى طريق التقدم والازدهار . وهو يؤمن بأن هذا الكون لا بد أن تسيره قوة علوية خالقة ولهذا فهو

يقول في « مشروع إنشاء الموسوعة العلمية الجديدة » (١٨١٠ - ١٨١٣)
« إنني أعتقد في الله ، الله الذى خلق العالم وأخضعه لقانون الجاذبية » من هذه
العبارة نجد أنه متأثر تأثراً واضحاً بأفكار نيوتن التى تتلخص فى أن هذا الكون
إنما يخضع لقوانين تجريبية علمية أهمها قانون الجاذبية . فمحاولة سان سيمون
أن يقلل من شأن الدين ، وأن يجعل من العلوم كهنوت الإنسانية ، إنما هى
رواسب للأفكار والفلسفة التى سادت القرن الثامن عشر وللمحاولات التى قام
بها فولتير ومونتسكيو وكندرسية من قبل لتقليد نيوتن وتطبيق قوانينه العلمية على
حركة التطور الإنسانى عبر التاريخ .

ومن الغريب أن يغفل سان سيمون أن الدين ظاهرة اجتماعية ، وأنه بعيد
كل البعد عن أن يكون من صنع الأفراد . من الغريب أن يفوته أن الدين ظاهرة
تلقائية لا يد للأفراد فى خلقها وإيجادها وإنما هى من خلق المجتمع نفسه . فلكل
شكل اجتماعى دينه الخاص به الذى ينبثق عن طبيعة الشكل الاجتماعى نفسه ،
ولهذا وجدت التوهمية فى العشائر لأن هذا الشكل الاجتماعى يلائم الدين بهذه
الصورة المعينة ، بينما نجد أن التوهمية تتطور فى الاتحادات لأنها شكل اجتماعى
مغاير للشكل الذى يلائم قيام التوهمية ، وفى المدن القديمة كان الدين يقوم على
الاعتقاد فى تعدد الآلهة لأن ظروف الحياة وطبيعة الاجتماع فى هذه المدن
تستلزم هذا التعدد . ثم قام الدين على التوحيد فى الأمم الحديثة لأن القوانين
الاجتماعية فى هذه المجتمعات الحديثة وطبيعة الحياة فيها تساعد على الاعتقاد
فى قوة واحدة علوية مسيرة لهذا الكون .

وإذا كان سان سيمون يرى أن المعتقدات الدينية التى سادت أوائل القرن
التاسع عشر لا تتفق مع التقدم الفكرى أو العقلى أو طبيعة الحياة الاجتماعية فى
المجتمع الحديث ، فإنه من الضرورى أن يدرك أنه لا سبيل له إلى خلق دين
جديد ، فليس هناك تدخل للإرادة الفردية من جانب بعض الأفراد فى تغيير
دين من الأديان أو خلق دين جديد ، وإنما طبائع الأشياء والقوانين الاجتماعية

التي تدير المجتمعات الإنسانية هي التي تعمل من تلقاء نفسها على إيجاد الدين بالشكل الذي يتفق مع طبيعة كل مجتمع .

ومع ذلك فإن قول سان سيمون بأن الدين الذي يتفق مع الحالة الوضعية يجب أن يكون دين العلم أو دين نيوتن ، يؤكد لنا أن سان سيمون يؤمن بأن الإنسانية لا يمكنها أن تعيش دون ديانة ما . ونظراً لأن كافة مظاهر التفكير الإنساني تعتمد على الملاحظة فهو يطالب بديانة تقوم على الملاحظة شأنها في ذلك شأن كافة الظواهر الأخرى .

وهو عندما يتنادى بقيام ديانة جديدة تلائم تطور الإنسانية ، فهو إنما يحاول تخليص المسيحية من الشوائب التي علقت بها في زمانه ، يريد أن يتخلص من بعض رجال الدين المسيحي الذين اندفعوا وراء الأغراض الدنيوية الزائلة وتحنوا عن الفضائل المسيحية الأصيلة . ويريد في نفس الوقت أن يعيد المسيحية الجديدة التي يتنادى بها عن كل نزعة روحية أو سماوية حتى لا تغرس في قلوب الأفراد وتقوسهم مشاعر الرهبة والخوف من سوء المصير ؛ يريد أن يقيم أخلاقاً تعتمد على فضائل دنيوية وضعية ، أخلاق ذات التزامات عامة للحاكم والمحكوم على السواء . وهنا يظهر لنا السبب الحقيقي لعداء سان سيمون لرجال الدين وللأخلاق المسيحية التي تقوم على فكرة الخطيئة ، فهو يريد أن يعيد تنظيم المجتمع ويخلصه من حالة الاستبداد والاضطراب والفوضى التي يعانيها ، وهنا أثرت عليه نزعاته الخاصة ونظراته الشخصية فشوهت تفكيره العلمي الوضعي وصيغته بصيغة فلسفية ذاتية تبحث فيما يجب أن يكون .

obeikandi.com

مؤلفات سان سيمون

توجد طبعتان كاملتان ولفات سان سيمون : الأولى للناشر « رودريج » Rodrigue صدرت في عام ١٨٣٢ ثم أعيد طباعتها مرة ثانية في عام ١٨٤١ ، أما الطبعة الكاملة الثانية فيرجع الفضل في نشرها إلى « لجنة تنفيذ وصية الأب أنفانتان » Les exécuteurs testamentaires d'Enfantin . وهذه الطبعة الأخيرة - التي صدرت في الفترة من عام ١٨٦٥ إلى عام ١٨٧٨ - تعد أكثر تكاملاً من طبعة رودريج ، فهي تشمل ٤٧ مجلداً تقع مؤلفات سان سيمون في إحدى عشر فقط من بينها ، والباقي يتعلق بمؤلفات أنفانتان . ويلاحظ أن مؤلفات سان سيمون تقع في الجزء الخامس عشر ، ثم في الأجزاء من الثامن عشر إلى الثالث والعشرين ، ثم في الأجزاء من السابع والثلاثين حتى الأربعين ، فهي متداخلة في مؤلفات أنفانتان .

وفي الفترة من عام ١٨٥٩ إلى ١٨٦١ قام « شارل لمونييه » Charles Lemonnier بنشر مختارات من مؤلفات سان سيمون ، في ثلاث أجزاء فقط . وفي عام ١٩٢٥ قام بوجليه Bouglé بنشر مختارات لكتابات سان سيمون يلاحظ فيها جهداً كبيراً في انتقاها ، ولكن يعاب عليها أنها غير وافية لإعطاء صورة كاملة لأفكار سان سيمون .

وقد استعنا بالطبعة الثانية التي تشمل مؤلفات سان سيمون وأنفانتان تحت عنوان : Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin بصفة أساسية ورجعنا أيضاً إلى المختارات من مؤلفات سان سيمون التي نشرها شارل لمونييه تحت عنوان Oeuvres Choieses كلما وجدنا ذلك أفضل لتدارك بعض ما فات الطبعة الكاملة من تفاصيل وتعليقات لها أهميتها .

وفيما يلي بيان بمؤلفات سان سيمون بحسب ترتيبها الزمني ، وأفضل طبعة لها :

1. *Lettres d'un Habitant de Genève à ses contemporains (1803) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XV.*
رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه (١٨٠٣)
في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان ، الجزء ١٥
2. *Essais sur l'Organisation Sociale (1804) in Oeuvres choisies T. III.*
محاولات في التنظيم الاجتماعي (١٨٠٤)
في مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث
3. *Introduction aux Travaux Scientifiques du XIXe siècle 1807-1808: in Oeuvres choisies T. 1.*
مقدمة للأعمال العلمية في القرن التاسع عشر (١٨٠٧-١٨٠٨)
في مؤلفات مختارة ، الجزء الأول .
4. *Lettres au Bureau des Longitudes (1808) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XV.*
خطابات إلى مكتب المساحة (١٨٠٨)
في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٥
5. *Histoire de l'homme. Avertissement (1801) Edité par Gouhier dans le Nef No. 20 de Juillet 1946.*
تاريخ الإنسان (تنبيه) (١٨١٠)
نشر بمعرفة جوهيه في مجلة « لي نف » العدد ٢٠ في يوليو سنة ١٩٤٦
6. *Projet d'Encyclopédie de C.H. Saint-Simon (1810) Publié dans la Revue Socialiste d'Avril 1899.*
مشروع موسوعة علمية لكلود هنري سان سيمون (١٨١٠)
نشر في المجلة الاشتراكية عدد أبريل ١٨٩٩
7. *Mémoire sur la Science de l'homme. (1813) in Oeuvres Choisis. T. II.*
بحث في علم الإنسان (١٨١٣)
في مؤلفات مختارة . الجزء الثاني
8. *Travail sur la Gravitation Universelle (1813) in Oeuvres Choisis. T. II.*

بحث عن الجاذبية العامة (١٨١٣)
في مؤلفات مختارة . الجزء الثاني

9. De la Réorganisation de la Société Européenne (1814) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XV.

في إعادة تنظيم المجتمع الأوربي (١٨١٤)
في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٥

10. L'Industrie (1819) in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. T. XVIII, XIX.

الصناعة (١٨١٩)

في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ١٨ ، ١٩

11. L'Organisateur (1820)
in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin T. XX.

المنظم (١٨٢٠)

في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢٠

12. Du Système Industriel (1821).
in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin, T. XXI, XXIII.

في النظام الصناعي (١٨٢١)

في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢١ ، ٢٣

13. Catéchisme des Industriels (1823-24)
in Oeuvres Choiesies, T. III.

تعاليم الصناع (١٨٢٣ - ١٨٢٤)

في مؤلفات مختارة ، الجزء الثالث

14. Opinions littéraires, philosophiques et industriels. (1824) N.B.
Z-57065.

آراء أدبية وفلسفية وصناعية (١٨٢٤)

المكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٧٠٦٥

15. Nouveau Christianisme (1825)
in Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin T. XXIII.

المسيحية الجديدة (١٨٢٥)

في مؤلفات سان سيمون وأنفانتان . الجزء ٢٣